الباب الأول

المدخل إلى علم التصوف

١- ما علم التصوف؟.

٢- تعريف التصوف.

٣- اشتقاق اسم التصوف.

٤- نشأة علم التصوف.

٥- ارتباط التصوف بالشريعة.

٦- ما السبب في أن التصوف لم يظهر إلا بعد عهد الصحابة والتابعين؟

٧- موقف السلف الصالح من التصوف.

٨- موقف أئمة الحركة السلفية من التصوف.

٩- التصوف المفترى عليه.

١٠- أهمية التصوف.

١١- حاجتنا إلى التصوف.

١٢- منهج التصوف.

ما علم التصوف؟

١) قال ابن عجيبة[١] رحمه اللّه تعالى:

(هو علم يعرف به كيفية السلوك إلى حضرة ملك الملوك، وتصفية البواطن من الرذائل، وتحليتها بأنواع الفضائل، وأوله علم، وأوسطه عمل، وآخره موهبة)[٢].

٢) وقال القاضي شيخ الإسلام زكريا الأنصاري[٣] رحمه اللّه تعالى:

(التصوف علم تُعرف به أحوال تزكية النفوس، وتصفية الأخلاق، وتعمير الظاهر والباطن، لنيل السعادة الأبدية)[٤].

٣) وقال الشيخ أحمد زروق الفاسي[٥] رحمه اللّه:

(التصوف علم قصد لإصلاح القلوب، وإفرادها للّه تعالى عما سواه)[٦].

---

(١) (ابن عجيبة): أحمد بن محمد بن المهدي، الحسني الأنجري مفسر صوفي من أهل المغرب. مدفون ببلدة أنجرة (بين طنجة وتطوان توفي (١٢٢٤ هـ=١٨٠٩م) له كتب كثيرة [الأعلام للزركلي].

(٢) ابن عجيبة: معراج التشوف إلى حقائق التصوف ص٤.

(٣) (زكريا الأنصاري): قاض مفسر، من حفاظ الحديث. ولد في سنيكة (بشرقية مصر) وتعلم في القاهرة وكف بصره وله كتب عديدة توفي (٩٢٦هـ/١٥٢٠م) [الأعلام للزركلي].

(٤) القشيري: على هامش الرسالة القشيرية ص٧.

(٥) (أحمد زروق): صوفي، فقيه، مالكي، محدث له كتب متعددة. ولد بفاس، وتوفي بتكرين (٨٩٩ هـ/١٤٩٣ م). [معجم المؤلفين لعمر كحالة].

(٦) أحمد زروق الفاسي: قواعد التصوف، قاعدة ١٣، ص٦.

٤) وقال العلامة حاجي خليفة:

هو علم يعرف به كيفية ترقي أهل الكمال من النوع الإنساني في مدارج سعاداتهم[١].

ثم قال:

علم التصوف علمٌ ليس يعرفه إلا أخو فطنة بالحق معروفُ

وليس يعرفه من ليس يشهده وكيف يشهد ضوءَ الشمس مكفوفُ

٥) ويعرف ابن ذكوان[٢] علم التصوف ببيت من الشعر فيقول:

علمٌ بـــه تـــصفية البـــواطن من كدرات النفس في المواطن

- قال العلامة المنجوري[٣] في شرح هذا البيت: (التصوف علم يعرف به كيفية تصفية الباطن من كدرات النفس أي عيوبها وصفاتها المذمومة كالغل والحقد والحسد والغش وحب الثناء والكبر والرياء والغضب والطمع والبخل وتعظيم الأغنياء والاستهانة بالفقراء، لأن علم التصوف يطلع على العيب والعلاج وكيفيته، فبعلم التصوف يُتوصل إلى قطع عقبات النفس والتنـــزُّهِ عن أخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة، حتى يتوصل إلى تخلية القلب عن غير اللّه تعالى، وتحليته بذكر اللّه تعالى)[٤].

---

(١) حاجي خليفة: كشف الظنون، ج١، ص٤١٣-٤١٤.

(٢) (ابن ذكوان) أحمد بن عبد الله بن ذكوان، أبو العباس: قاضي القضاة بالأندلس. ولاه المنصور بن أبي عامر القضاء بقرطبة. توفي (٤١٣هـــ/١٠٢٢م) [الأعلام للزركلي].

(٣) علي بن محمد بن عبد الله المنجوري البلخي العالم المحدث سمع مالكا وشعبة ذكره الخليلي في الإرشاد وقال ثقة. [لسان الميزان: ابن حجر]

(٤) مصطفى إسماعيل المدني: النصرة النبوية على هامش شرح الرائية للفاسي، ص٢٦.

٦) وقال أبو الحسن بن أبي ذر[١] في كتابه (منهاج الدين) أنشدونا للشبلي[٢]:

علم التصوف علم لا نفاد له ... علم سَنِيٌّ سماوي رَبُّوبي

فيه فوائد للأرباب يعرفها ... أهل الجَزالَة والصنع الخصوصي

٧) وقال ابن خلدون[٤] في مقدمته:

(وهذا العلم - يعني التصوف - من العلوم الشرعية الحادثة في الملة، وأصله أن طريقة هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم طريقةَ الحق والهداية، وأصلها العكوف على العبادة، والانقطاع إلى اللّه تعالى، والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهد في ما

---

(١) ابن أبي ذر: الشيخ العالم الصدوق أبو مكتوم عيسى بن الحافظ الكبير أبي ذر عبد ابن أحمد الأنصاري، الهروي، ثم السروي، توفي (٥٣٠هـ) عن عمر يناهز ثلاث وتسعين سنة.[سير أعلام النبلاء: للذهبي]

(٢) (الشبلي) محمد بن عبد الله الشبلي الدمشقي، أبو عبد الله، بدر الدين بن تقي الدين: فاضل متفنن. من فقهاء الحنفية. ولد بدمشق، وكان أبوه (قيم الشبلية وهي قرية بجانب سمرقند) فيها. ورحل إلى القاهرة، وولي قضاء طرابلس الشام واستمر في القضاء إلى أن توفي بها (٧٦٩ هـ/١٣٦٧م).[الأعلام للزركلي]

(٣) أبو بكر محمد الكلاباذي: التعرف لمذهب أهل التصوف، ص٨٨.

(٤) ابن خلدون: هو عبد الرحمن محمد بن محمد بن الحسن، أبو زيد ، الحضرمي، الأشبيلي الأصل التونسي ثم القاهري، المالكي، المعروف بابن خلدون. عالم، أديب، مؤرخ، اجتماعي، حكيم. وولي في مصر قضاء المالكية. وأخذ الفقه عن قاضي الجماعة ابن عبد السلام وغيره. توفي: (٨٠٨هـ) من تصانيفه: العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر وهو المعروف بتاريخ ابن خلدون، وشرح البردة". [الأعلام للزركلي]

يقبل عليه الجمهور من لذة مال وجاه، والانفراد عن الخلق والخلوة للعبادة، وكان ذلك عاماً في الصحابة والسلف: فَلَمّا فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده، وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا، اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة)[1].

٨) وقال العلامة الشيخ محمد أمين الكردي[2]:

(واعلم أن التصوف ويقال له علم الباطن من أجل العلوم قدراً، وأعظمها محلاً وفخراً، وأسناها شمساً وبدراً، وقد فضل اللّه أهله على الكافة من عباده بعد رسله وأنبيائه صلوات اللّه وسلامه عليهم، وجعل قلوبهم معدن الأسرار، واختصهم من بين الأمة بطوابع الأنوار، فهم الغياث للخلق، والدائرون في عموم أحوالهم مع الحق)[3].

ثم يقول: (وفضله أنه أشرف العلوم لتعلقه بمعرفة اللّه تعالى وحبه وهي أفضل على الإطلاق، ونسبته إلى غيره من العلوم أنه أصلٌ لها وشرط فيها إذ لا علم ولا عمل إلا بقصد التوجه إلى اللّه فنسبته لها كالروح للجسد)[4].

- من هذه الأقوال نجد أن التصوف علم قائم بذاته وهو من أشرف العلوم، وهو علم يختص بعلم الباطن وفقهه، وإصلاح القلب وتزكيته، وتطهير

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص٣٢٩.

(٢) (محمد أمين الكرديّ) محمد أمين بن فتح الله الإربليّ الكردي: عالم صوفي واعظ، من أهل إربل. تعلم بالأزهر وتوفي بالقاهرة. له كتب عديدة. توفي (١٣٣٢ هـ/ ١٩١٤م) [الأعلام للزركلي]

(٣) محمد أمين الكردي: تنوير القلوب ص٤٣٦.

(٤) المصدر السابق، ص٤٣٨.

النفس وتهذيبها، ويسعى إلى الوصول إلى مقام الإحسان، ويستحسن هنا أن نستشهد بقول الأستاذ عبد الباري الندوي[1]:

(فإن أبى شخص أن يعترف بالتصوف كعلم بعينه، وفن بذاته، فَلِمَ لا ينفر ويشمئز من المصطلحات الدينية الأخرى من تفسير ومفسر، وتجويد ومجود، وكلام ومتكلم، وغيرها)[2].

(١) عبد الباري الندوي: أستاذ الفلسفة الحديثة في الجامعة العثمانية بحيدر آباد سابقاً.

(٢) عبد الباري الندوي:بين التصوف والحياة.

تعريف التصوف

-يقول الشيخ السهروردي[1] رضي اللّه تعالى عنه: (أقوال المشايخ في ماهية التصوف تزيد على ألف قول)[2].

- وقال الشيخ أحمد زروق[3] في قواعده: (وقد حُدّ التصوف ورسم وفسر بوجوه تبلغ نحو الألفين مرجع كلها صدق التوجه إلى اللّه وإنما هي وجوه فيه)[4].

- إذاً للتصوف تعريفات كثيرة اذكر منها ما يلي:

١- قال الإمام الغزالي رحمه اللّه تعالى:

(التصوف: هو تجريد القلب للّه تعالى واحتقار ما سواه، أي تخليص القلب للّه تعالى، واعتقاد ما سواه اعتقاداً أنه لا يضر ولا ينفع، فلا يعول إلا على اللّه، فالمراد باحتقار ما سواه اعتقاد أنه لا يضر ولا ينفع، وليس المراد الإزدراء والتنقيص)[5].

---

(١) السهروردي: العلامة، الفيلسوف المنطقي، شهاب الدين يحيى بن حبش بن أميرك السهروردي، كان يتوقد ذكاء. بارعا في أصول الفقه، فصيحا. له عدة مصنفات. توفي سنة (٥٨٧هـ). [سير أعلام النبلاء]

(٢) يوسف خطار محمد: الموسوعة اليوسفية في بيان أدلة الصوفية، ص٣٨.

(٣) أحمد زروق: أحمد بن أحمد بن محمد بن عيسى البرلسي، الفاسي، المالكي، الشهير بزروق (شهاب الدين أبو الفضل) صوفي، فقيه، محدث. ولد بفاس، وتوفي في تكرين (٨٩٩هـ/١٤٩٣م). [معجم المؤلفين: عمر كحالة]

(٤) أحمد زروق الفاسي: قواعد التصوف، القاعدة الثانية.

(٥) أبو اليسر عابدين: حكايا الصوفية ص٢٥-٢٦.

٢- وقال الشبلي رحمه اللّه تعالى:

(التصوف: ضبط حواسك، ومراعاة أنفاسك)[١].

٣- وقال أبو الحسن الشاذلي رحمه اللّه تعالى:

(التصوف: تدريب النفس على العبودية، وردها لأحكام الربوبية)[٢].

٤- وقال الشيخ محيي الدين بن عربي[٣] رحمه اللّه تعالى:

(التصوف هو الوقف مع الآداب الشرعية ظاهراً وباطناً.

وقال أيضاً:

(التصوف خلق فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في التصوف)[٤].

٥- وقال الإمام الجنيد رحمه اللّه تعالى:

(التصوف تصفية القلب عن موافقة البرية، ومفارقة الأخلاق الطبيعية، وإخماد الصفات البشرية، ومجانبة الدواعي النفسية، ومنازلة الصفات الروحانية، والتعلق بالعلوم الحقيقية، واستعمال ما هو أولى على الأبدية، والنصح لجميع الأمة، والوفاء للّه على الحقيقة، واتباع الرسول ﷺ في الشريعة)[٥].

---

(١) عبد الوهاب سبكي: معيد النعم ومبيد النقم، ص٩٤.

(٢) حامد صفر: نور التحقيق، ص٩٣.

(٣) الشيخ محيي الدين بن عربي: محمد بن علي بن محمد بن أحمد بن عبد الله، أبو بكر الطائي الحاتمي الأندلسي، والمعروف بابن عربي، صاحب التصنيفات الكثيرة في التصوف وغيره، ذكر أنه سمع بمرسية من ابن بشكوال، وسمع ببغداد ومكة ودمشق، توفي (٦٣٨هـ). [فوات الوفيات: محمد بن شاكر الكتبي].

(٤) شرح كلمات الصوفية ص٣٢٦ نقلاً عن الموسوعة اليوسيفية.

(٥) التعرف لمذهب أهل التصوف، ص٢٥.

- وأقول: وبعد أن تربيت على يدِ أشياخ التصوف الحقيقيين، وسلكت مسلكهم في تربية نفسي وأنْفُسِ من خدمتهم من أجيال الشباب الكثيرين منذ أكثر من خمسين عاماً على هذه الطريق.

- أقول: إن التصوف هو طريق تحقيق التزكية للنفس التي ذكرت في القرآن الكريم في عدة آيات، وسبيل تحقيق مقام الإحسان الذي ذكره النبي ﷺ، هذا الطريق الذي يجب أن يسلكه كل مسلم ليكون مطبِقاً الشريعة على أكمل وجه متقيداً بالقرآن والسنة، فبالتصوف يعرف المسلم ربه حق المعرفة، فيسعى إلى تقوية علاقته به التي تجعل منه نموذجاً فذاً ومثالاً واقعياً لحقائق الإسلام والإيمان والإحسان.

اشتقاق اسم التصوف

- نزل الوحي على رسول اللّه ﷺ بالإسلام وأخذ الرسول ﷺ يدعو إليه وكان نزول القرآن الكريم على رسول اللّه ﷺ نزولاً منجماً متتابعاً مدة ثلاث وعشرين سنة، وكان الصحابة الكرام كلما نزلت آيات من القرآن تلقوها من رسول اللّه ﷺ وتعلموها وحفظوها وعملوا بما فيها، ثم قاموا بالدعوة إليها.

فالصحابة ﷺ أخذوا تعاليم الإسلام عن النبي ﷺ، وأخذها عنهم من صَحِبَهم من التابعين، ثم أخذها عن التابعين من صحبهم ممن سُمُّوا تابعي التابعين، وهم الذين نَحَوْا بتلك التعاليم منحى تخصصياً، فمنهم من تخصص في القرآن الكريم وما يتعلق به من علوم كالتفسير وغيره، ومنهم من تخصص بالحديث النبوي وما يتعلق به من علوم فرعية كثيرة كعلم الرواية والدراية، ومنهم من تخصص بعلوم اللغة كالنحو والصرف والبلاغة والأدب وغير ذلك، ومنهم من تخصص في علم الفقه وما يتعلق به من الأحكام الشريعة، وقد دونت هذه العلوم المنقولة واستحدثت لها أسماء ومصطلحات متعددة لم تكن في زمن رسول اللّه ﷺ فمن اشتغل بالتفسير سُمي (مفسراً) ومن اشتغل بالحديث الشريف سُمي (محدثاً) ومن اشتغل في اللغة سُمي (لغوياً) ومن اشتغل بالفقه سُمي (فقيهاً) أما من اشتغل بالتربية والأخلاق والسلوك في طريق اللّه سُمي (صوفياً).

- إذن هذه الأسماء لم تكن على عهد رسول اللّه ﷺ وإنما هي مصطلحات وأسماء مستحدثة للعلوم الشرعية التي جاء بها سيدنا محمد ﷺ، فمن تخصص في علم من هذه العلوم أو غيرها فنسب إليه وسُمي باسمه المستحدث لا يتعارض عن تسميته مسلماً، إذْ ليس كل اسم أو وصف لم

يأت في القرآن الكريم أو السنة الشريفة يحرم التسمي به بل هو جائز شرعاً فقد سمى اللّه سبحانه وتعالى المسلمين بأسماء عديدة السابقين الصالحين – المخبتين... وغير ذلك بأعمال اتصفوا بها واستداموا عليها.

– كذلك سُمي بعض الصحابة بأسماء نسبة إلى قبائلهم أو أوطانهم مثل سيدنا أبي ذر (الغفاري) وسيدنا بلال (الحبشي) وسيدنا سلمان (الفارسي) وسيدنا صهيب (الرومي).

– نخلص ممن سبق إلى أن إطلاق التصوف والصوفي على من سلك منهج تزكية النفس في الإسلام لا يناقض ويعارض تسميته مسلماً، ولا يدل على خروج عن الإسلام وتعاليمه، ولا يثير شبهة ما، بل يدل على من أراد أن يتمسك بالسلوك الإسلامي الصحيح، والدين القويم، والتقرب من رب العالمين، كما جاء في القرآن الكريم وهدي النبي ﷺ.

– أما من أراد أن يتعرف على أصل هذا الاشتقاق فإنه سيجد أنه كثرت الأقوال فيه، ومما قيل فيه:

أولاً: أنه من الصوف، وتصوف إذا لبس الصوف، كما يقال تقمّص إذا لبس القميص، فهذا وجه، ولكن القوم لم يختصوا بلبس الصوف، وإن لبسه بعضهم.

– ويرد ابن تيمية على ذلك بذكره ما رواه أبو الشيخ الأصبهاني بإسناده عن محمد بن سيرين أنه بلغه أن قوماً يفضلون لبس الصوف، فقال: إن قوماً يتخيرون الصوف، يقولون: إنهم متشبهون بالمسيح ابن مريم، وهدي نبينا أحب إلينا، وكان النبي ﷺ يلبس القطن وغيره[1].

---

(١) ابن تيمية: مجموعة الفتاوى الجزء ١١، التصوف ص٨.

- بينما يرى أبو نصر السراج الطوسي[1] أن نسبتهم إنما هي إلى ظاهر اللبسة، لأن لبسة الصوف دأب الأنبياء عليهم السلام وشعار الأولياء والأصفياء ويكثر في ذلك الروايات والأخبار، ألا ترى أن اللّه تعالى ذكر طائفة من خواص أصحاب عيسى عليه السلام فنسبهم إلى ظاهر اللّبْسة فقال ﷻ: ﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ﴾[2] وكانوا قوماً يلبسون البياض فنسبهم اللّه تعالى إلى ذلك و لم ينسبهم إلى نوع من العلوم والأعمال والأحوال التي كانوا بها مترسمين، فذلك الصوفية عندي واللّه أعلم[3].

- هذا وأثر عن سيدنا الحسن البصري رضي اللّه عنه أنه قال:

(لقد أدركت سبعين بدرياً كان لُبْسُهم الصوف)[4].

ومن لبس الصوف لم يلبس لحظوظ النفس، وإنما لبسه لستر العورة.

ثانياً: أنه منسوب إلى أهل الصفة المشهورين زمن رسول اللّه ﷺ بالتفرغ للعلم والعبادة وقد كانت حياتهم المثل الأعلى الذي استهدفه رجال التصوف في العصور الإسلامية المتتابعة.

ثالثاً: إنه مشتق من الصف فكأنهم في الصف الأول بقلوبهم من حيث حضورهم مع اللّه تعالى، وتسابقهم في سائر الطاعات وهو عند ابن تيمية

---

(١) أبو نصر السراج عبد الله بن علي الطوسي، زاهد. كان شيخ الصوفية، على طريقة السنة. له كتاب في التصوف (اللمع) وهو أفضل ما كتب في التصوف توفي سنة (٣٧٨ هـ/٩٨٨م) [الأعلام للزركلي]

(٢) سورة المائدة: ١١٢.

(٣) أبو نصر السراج الطوسي: اللُّمَع، ص٤٠.

(٤) أبو نعيم: حلية الأولياء، ١٣٤/٢.

غلط أيضاً، فإنه لو كان كذلك لقيل: صَفِّيّ وعند القشيري[1] المعنى صحيح ولكن اللغة لا تقتضي هذه النسبة إلى الصف.

رابعاً: إنه من الصفاء حتى قال أبو الفتح البستي[2] رحمه اللّه تعالى:

تنازع الناس في الـــصوفي واختلفـــوا
وظنه البعض مشتقاً مـــن الـــصوف
ولست أمنح هذا الاسم غـــير فـــتً
صفا فصوفي حتى سُمي الـــصوفي[3]

- ويشير الغزالي في كتاب عوارف المعارف إلى هذا المعنى فيقول:

(الصوفي هو الذي يكون دائم التصفية لا يزال يصفي الأوقات عن شوب الأكدار، بتصفية القلب عن شوب النفس، ويعينه على كل هذه التصفية دوام افتقاره إلى مولاه، فبدوامِ الافتقار ينقى من الكدر، وكلما تحركت النفس وظهرت بصفة من صفاتها أدركها ببصيرته النافذة وفر بها إلى ربه، فبدوام تصفيته جمعيته، وبحركة نفسه تفرقته وكدره، فهو قائم بربه على

---

(١) القشيري عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك بن طلحة النيسابوري القشيري، من بني قشير بن كعب، أبو القاسم، زين الاسلام: شيخ خراسان في عصره، كان زاهداً وعالماً بالدين. كانت إقامته بنيسابور وتوفي فيها سنة (٤٦٥هـ/١٠٧٢م) [الأعلام للزركلي].

(٢) أبو الفتح البستي: علي بن محمد بن الحسين بن يوسف بن محمد بن عبد العزيز البستي، شاعر عصره وكاتبه. ولد في بست (قرب سجستان) وإليها نسبته. توفي (٤٠٠هـ/١٠١٠م) [الأعلام للزركلي]

(٣) ابن عجيبة: إيقاظ الهمم في شرح الحكم.

قلبه، وقائم بقلبه على نفسه. قال تعالى: ﴿كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ﴾[1] وهذه القوامية للّه على النفس هو التحقق بالتصوف)[2].

- ويؤكد هذا المعنى الشيخ محمد أمين الكردي فيقول:

(علم التصوف مأخوذ من الصفاء، والصوفي إن صفا قلبه من الكدر، وامتلأ من العبر، استوى عنده الذهب والمدر[3]) [4].

- وقال بعض العارفين[5]:

يا واصفي أنت في التحقيق موصوفي

وعارفي لا تغـــالط أنـــت معـــروفي

إن الفتى من بعهدٍ في الأزل يوفي

صافى فصوفي لهذا سُمِّيَ الصوفي

بينما يرى القشيري: (أن اشتقاق الصوفي من الصفاء بعيد عن مقتضى اللغة)[6].

خامساً: إنه نسبة إلى الصفوة من خلق اللّه. قال ابن تيمية وهو غلط، لأنه لو كان كذلك لقيل صَفَوِيّ.

---

(١) سورة المائدة:٨

(٢) الغزالي: ملحق إحياء علوم الدين، ص٦٤.

(٣) المدر: التراب وقطع الطين اليابس.

(٤) محمد أمين الكردي: تنوير القلوب ص٤٤١.

(٥) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(٦) الرسالة القشيرية ص٢٧٩.

سادساً: من الصوفة، لأن الصوفي مع اللّه تعالى كالصوفة المطروحة لاستسلامه للّه تعالى.

سابعاً: مشتق من (صوفة) وذلك أن قوماً كانوا في الجاهلية يقال لهم صوفة انقطعوا إلى اللّه تعالى وقطنوا الكعبة فمن تشبه بهم من الناس سموا بالصوفية.

ثامناً: يرى بعض المستشرقين أن الكلمة راجعة إلى أصل يوناني أو بوذي أو غير ذلك وأنها مشتقة من الأصل اليوناني (صوفا) ومعناها الحكمة وهذا رأي فاسد مدسوس لا يوجد له دليل إيجابي قطعاً.

- والذي أراه بعد عرض هذه الآراء أن المتصوفة لقب لأناس اتصفوا بصفات معينة أذكرها لاحقاً، وأن الصوفي اسم جامد أو لقب أطلق على من ينتمي إليهم ليميزه من غيره.

- وهذا ما أكد عليه القشيري حيث قال:

(هذه التسمية غلبت على هذه الطائفة، فيقال: رجل صوفي وللجماعة صوفية، ومن يتوصل إلى ذلك يقال له: متصوف، وللجماعة: المتصوفة، وليس يشهد لهذا الاسم من حيث العربية قياس ولا اشتقاق وإلا ظهر فيه أنه كاللقب. ثم يقول:

ثم إن هذه الطائفة أشهر من أن يحتاج في تعيينهم إلى قياس لفظ واستحقاق اشتقاق)[1].

- وقد عبر ابن خلدون عن ذلك أيضاً فقال:

---

(١) المصدر السابق والصفحة نفسها.

(فلما فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده، وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا، اُختُصَّ المقبلون على العبادة باسم الصوفية)[1].

- وأخيراً فلا يهمنا أصل هذا الاشتقاق غير القياسي هل هو من الصوف أو من الصُّفَّة أو من الصف الأول أو الصفاء أو الصفوة وإن كان الظاهر يشير من قريب أو بعيد إلى أنه من هذا الأخير، المهم أن نعرف نشأتهم وحقائقهم وطرائقهم وأخلاقهم وصفاتهم وسلوكهم وأعمالهم.

(١) ابن خلدون: المقدمة ص٣٢٩.

نشأة علم التصوف

- قال القشيري:

(اعلموا رحمكم اللّه أن المسلمين بعد رسول اللّه ﷺ لم يَتَسَمَّ أفاضلهم في عصرهم بتسمية علم سوى صحبة رسول اللّه ﷺ، إذ لا أفضلية فوقها، فقيل لهم ((الصحابة)) ولما أدرك العصر الثاني سمي من صحب الصحابة ((التابعين)) ورأوا ذلك أشرف تسمية، ثم قيل لمن بعدهم ((أتباع التابعين)). ثم اختلفت وتباينت المراتب، فقيل لخواص الناس ممن لهم شدة عناية بأمر الدين: ((الزهاد والعباد)) ثم ظهرت البدع وحصل التداعي بين الفرق فكل فريق ادَّعَوْا بأن منهم زهاداً، فانفرد خواص أهل السنة الراعون أنفسهم مع اللّه تعالى الحافظون قلوبهم عن طوارق الغفلة باسم ((التصوف)) واشتهر هذا الاسم لهؤلاء الأكابر بعد المائتين من الهجرة)[1].

- ولكن كما سيأتي يبدو أن هذا الاسم كان موجوداً قبل المئتين بقليل ولكنه اشتهر بعدها، ويقول الدكتور حسن إبراهيم حسن[2]:

(ومن المسائل التي شغلت أفكار المسلمين في ذلك العصر ((التصوف)) وذلك أن كثيراً من المسلمين الذين اشتهروا بالورع والتقوى لم يجدوا في علم الكلام ما يقنع نفوسهم المولعة بحب اللّه سبحانه وتعالى، فرأوا أن يتقربوا إليه عن

---

(١) الرسالة القشيرية: ص٣٨٩.

(٢) د. حسن إبراهيم حسن: دكتور في التاريخ والفلسفة، مصري ولد في طنطا وتعلم في الجامعة المصرية القديمة والمعلمين العليا وجامعة لندن ودرس التاريخ الإسلامي في كلية الآداب بالقاهرة واختير عميداً لها، ثم مديرا لجامعة الصعيد فمديراً لجامعة أسيوط وعين للتدريس في جامعة الرباط (بالمغرب) ومات أستاذا في جامعة بغداد. ودفن بالقاهرة سن (١٣٨٨هـ/١٩٦٨م). [الأعلام للزركلي]

طريق الزهد والتقشف وفناء الذات في حبه تعالى ومن ثم سموا ((بالمتصوفين))[1].

- وقال المدائني[2] عن بعض العلماء: كان رجل من العرب في زمن النبي ﷺ مسرفاً على نفسه، لم يكن يتحرج، فلما أن توفي النبي ﷺ لبس الصوف، ورجع عما كان عليه، وأظهر الدين والنسك، فقيل له لو فعلت هذا والنبي ﷺ حي لفرح بك، قال: كان لي أمانان فمضى واحد وبقي الآخر قال الله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾[3] فهذا أمان والثاني: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾[4].

- هذا وأثر عن سيدنا الحسن البصري ﷺ وكان تابعياً أنه قال: (لقد أدركت سبعين بدرياً كان لباسهم الصوف)[5].

- كما روى عنه أنه قال: (لقيت صوفياً في الطواف فأعطيته شيئاً فلم يقبله وقال: معي أربعة دوانق فيكفيني ما معي)[6].

- وقيل إنّ أول من تسمى بالصوفي هو أبو هاشم الكوفي الذي ولد في الكوفة وأمضى سواد حياته في الشام وتوفي سنة /١٥٠هـ/[7].

---

(١) د. حسن إبراهيم حسن تاريخ الإسلام، ج٣، ص٢٢٠.

(٢) المدائني: أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الله، راوية ومؤرخ، كثير التصانيف، من أهل البصرة.سكن المدائن، ثم انتقل إلى بغداد فلم يزل بها إلى أن توفي (٢٢٥هـ/٨٤٠م) [الأعلام للزركلي].

(٣) سورة الأنفال: ٣٣.

(٤) سورة الأنفال: ٣٣.

(٥) أبو نعيم: حلية الأولياء، جزء٢ ص١٣٤.

(٦) لأبي نصر الطوسي: اللمع، ص٤٢.

(٧) ابن حجر: الفتاوى الحديثة.

فقد روى عن سفيان الثوري[1] رحمه اللّه أنه قال: (لولا أبو هاشم الصوفي ما عرفت دقيق الرياء)[2].

- وقيل أن أول من بنى دويرة التصوف بعض أصحاب عبد الواحد بن زيد[3]وهو من أصحاب الحسن البصري رحمه اللّه تعالى.

- ولقد ذكر أن الإمام مالك رحمه اللّه تعالى قال: (من تَفَقَّهَ و لم يَتَصَوَّفَ فقد تَفَسَّقَ، ومن تَصَوَّف و لم يتفقَّهْ فقد تَزَنْدَقَ ومن جمع بينهما فقد تحقَّقَ)[4].

ومن المعلوم أن الإمام مالك رحمه اللّه تعالى توفي سنة ١٧٩هـ في المدينة المنورة وهذا يدل على أن التصوف كان معروفاً بهذا الاسم في هذه الفترة.

- ولكن قيل إنّ أول من حدد نظريات التصوف وشرحها هو ذو النون المصري[5] /٢٤٥ هـ/ تلميذ الإمام مالك وأن الذي شرحها وبوبها ونشرها

---

(١) (سفيان الثوري): أبو عبد الله سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري، من بني ثور، أمير المؤمنين في الحديث.كان سيد أهل زمانه في علوم الدين والتقوى. ولد ونشأ في الكوفة وخرج من الكوفة ثم سكن مكة والمدينة. وانتقل إلى البصرة فمات فيها (١٦١هـ/٧٧٨م) له عدة كتب في الحديث [الأعلام للزركلي].

(٢) ذكره حاجي خليفة: في كشف الظنون.

(٣) عبد الواحد بن زيد: الزاهد البصري العابد شيخ الصوفية بالبصرة توفي سنة (١٧٧هـ). [الوافي بالوفيات]

(٤) كتاب: (الشفا للقاضي) شرح ملا علي القارئ جزء ٥ ص ٤٠٨ وذكرها أيضاً في كتابه (عين العلم وزين الحلم) جزء ١ ص ٣٣ ونقلها كذلك العلامة العدوي على شرح الإمام أبي الحسن في الفقه المالكي جزء ٢ ص ١٩٥.

(٥) ذو النون المصري: أبو الفيض ثوبان بن إبراهيم الأخميني المصري، أحد الزهاد العباد المشهورين. من أهل مصر. نوبي الأصل من الموالي.كانت له فصاحة وحكمة وشعر. وهو أول من تكلم بمصر في (ترتيب الأحوال ومقامات أهل الولاية) وتوفي بجيزتها سنة (٢٤٥هـ/٨٥٩م). [الأعلام للزركلي]

هو الجنيد البغدادي المتوفى سنة /٣٣٤هـ/[١].

- (وإن من أخلد ما كتب عن التصوف والصوفية كتاب التعرف لمذهب أهل التصوف للإمام العالم العارف تاج الإسلام أبي بكر محمد بن إسحاق البخاري الكلاباذي المتوفى سنة(٣٨٠هـ-٩٩٠م) وهو من أقدم وأدق وأنقى وأصفى ما كتب عن هذا العلم ورجاله كتبه العارف الكلاباذي في العصر الذهبي للتصوف في أوائل القرن الرابع للهجرة القرن الذي بلغ فيه التصوف كماله العلمي والفني واستكمل فيه التصوف علومه ومناهجه وآدابه وسلوكه ومقاماته)[٢].

- ثم بعد ذلك ظهر العديد من علماء التصوف ومشاهيرهم وأصبح لهم طرقاً يسلكونها للوصول إلى غايتهم وانتشر التصوف في جميع أرجاء الأمة الإسلامية وعلى مر العصور والأزمنة، وفي جميع البقاع والأمكنة، حتى وقتنا الحاضر.

(١) محمد فايز المط من كنوز الإسلام، ص٩٤.

(٢) مقدمة لجنة نشر كتاب التعرف لمذهب أهل التصوف ص٧.

ارتباط التصوف بالشريعة

- يظن كثير من المسلمين الذين لم يطلعوا على حقائق التصوف أن أصحاب التصوف هم من أهل البدع الخارجين عن الإسلام أو المرتدين عنه، أو البعيدين عن تعاليمه، أو المدسوسين لهدمه.

- لكن المنصف عندما يدرس حقائقهم وأهدافهم وغاياتهم وطرائقهم ويعيش في مدارسهم ويسلك سلوكهم ويتربى في كنفهم، يجد أنهم على الإسلام الحقيقي، والإيمان الكامل، فهم يتمسكون بتعاليم القرآن الكريم، وهدي النبي العظيم ﷺ، وأنهم لا يخرجون عن الشريعة قيد أنملة، وأن تعاليمهم لا تخرج عن منهج التزكية الذي ذكره القرآن الكريم، والسعي إلى مقام الإحسان الذي ذكره النبي العدنان ﷺ.

- وعندما يتدبَّرُ المسلم القرآن الكريم يجد أن هناك آيات متعددة بينت مهمة النبي ﷺ في نشر الدعوة وأنها أربع وهي:

أولاً: تعليم المسلمين آيات القرآن الكريم تلاوة وعملاً وتطبيقاً.

ثانياً: تزكية النفس وهي التربية الروحية.

ثالثاً: تعليمهم أحكام القرآن الكريم وأهدافه ومقاصده.

رابعاً: تعليمهم الحكمة وهي السلوك العملي للمؤمن في هذه الحياة مع كل المخلوقات.

من هذه الآيات قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾[1].

---

(١) سورة الجمعة:٢

- ورجال التصوف قاموا بحمل هذه المهمات خير قيام، ولكن كان اهتمامهم بتزكية النفس أكثر، لأنهم وجدوها السبيل الأمثل لتحقيق المهمات الأخرى، وأنها السبيل الوحيد لإعادة المؤمنين إلى صفاء الإسلام والإيمان، الذي كان على عهد رسول اللّه ﷺ بين صحابته الكرام الذين رباهم النبي ﷺ وزكاهم فكانوا خير أمة أخرجت للناس.

ودفعهم إلى ذلك ما حدث من تغير بعد ذلك في نفوس بعض المسلمين، بسبب الانغماس بالدنيا والشهوات والملذات إثر الفتوحات واختلاطهم بالأمم الأخرى.

- وهذا ما أشار إليه ابن خلدون في مقدمته وهو يتحدث عن علم التصوف قال:

(فلما فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا، اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة)[1].

- ومن الأصول التي اعتمدوها في منهجهم الحديث الصحيح المشهور والذي جرى بين جبريل وهو في هيئة رجل أسود الشعر أبيض الثياب وبين رسول اللّه ﷺ وهو جالس مع أصحابه، هذا الحديث الذي جرى على طريقة الحوار، جبريل يسأل ويصدق وسيدنا محمد ﷺ يجيب سأله عن أركان الدين الإسلام والإيمان والإحسان ولقد اختص كل فريق من العلماء بأحد الأركان فأركان الإسلام اهتم بها أصحاب العقيدة والفقه وأركان الإيمان اهتم بها أصحاب العقيدة والكلام، والإحسان كما عرفه النبي ﷺ: «أن تعبد اللّه كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[2].

---

(١) مقدمة ابن خلدون، علم التصوف ص٣٢٩.

(٢) متفق عليه.

اهتم به الدعاة والمربون والمصلحون وهم أصحاب التصوف، وسعوا إلى تحقيقه ضمن برنامج مستمد من القرآن والسنة من خلال المحبة لله ورسوله واتباع سنة رسول الله في كل الأحوال ومن خلال الذكر والدعوة إلى الصدق والإخلاص والاستقامة وغير ذلك.

- سئل الإمام الحافظ السيد محمد صديق الغماري رحمه الله عن أول من أسس التصوف وهل هو بوحي سماوي؟ فأجاب: (أما أول من أسس الطريقة، فلنعلم أن الطريقة أسسها الوحي السماوي في جملة ما أسس من الدين المحمدي، إذ هي بلا شك مقام الإحسان الذي هو أحد أركان الدين الثلاثة التي جعلها النبي ﷺ بعدما بينها واحداً واحداً ديناً بقوله: «هذا جبريل عليه السلام أتاكم يعلمكم دينكم»).

وهو الإسلام والإيمان والإحسان، فالإسلام طاعة وعبادة، والإيمان نور وعقيدة، والإحسان مقام مراقبة ومشاهدة: «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

- ثم قال السيد محمد صديق الغماري في رسالته تلك: (فإنه كما في الحديث، الدين عبارة عن الأركان الثلاثة، فمن أخل بهذا المقام (الإحسان)، فدينه ناقص بلا شك لتركه ركناً من أركانه، فغاية ما تدعو إليه الطريقة وتشير إليه هو مقام الإحسان بعد تصحيح الإسلام والإيمان)[1].

- هذا وإننا إذا درسنا الشريعة من خلال آيات القرآن الكريم، وما أثر عن النبي ﷺ من الأقوال والأفعال والأحوال، وما دوّن في الكتب حول ذلك نجد أنها تنقسم إلى قسمين:

---

(١) انتصار الطريقة الصوفية، للمحدث محمد صديق الغماري ص٦.

أولاً: أفعال وهيئات وأمور محسوسة كقيام وقعود وركوع وسجود وتلاوة وتسبيح وأدعية وأذكار، وأحكام ومناسك وغير ذلك وكل ذلك تكفل به أصحاب الحديث ورواته، وعلماء الفقه والشريعة – جزاهم الله عن الأمة خيراً – فحفظوا للأمة دينها وسهلوا لها العمل به.

ثانياً: كيفيات باطنية كانت تصاحب هذه الأفعال والهيئات عند الأداء وتلازم الرسول ﷺ قياماً وقعوداً وركوعاً وسجوداً، وداعياً وذاكراً، وآمراً وناهياً، وفي خلوة البيت وساحة الجهاد، وهي الإيمان والإخلاص والاحتساب والصبر والتوكل والزهد وغنى القلب والإيثار والسخاء والأدب والتقوى والورع والحياء والخشوع والتضرع والابتهال، وإيثار الآخرة على العاجلة، والشوق إلى لقاء الله، إلى غير ذلك من كيفيات باطنية وأخلاق إيمانية، وسلوك إسلامي، وآداب قرآنية نبوية – هي من الشريعة بمنزلة الروح من الجسد، والباطن من الظاهر وتتدرج تحت هذه العناوين تفاصيل وجزئيات وآداب وأحكام تجعل منها علماً مستقلاً، وفقهاً منفرداً فإن سمي العلم الذي تكفل بشرح الأول وإيضاحه وتفصيله والدلالة على طرق تحصيله (فقه الظاهر) سُمي هذا العلم الذي يتكفل بشرح هذه الكيفيات ويدل على طرق الوصول إليها (فقه الباطن)، ولئن تكفل أهل الفقه والحديث والعقيدة والسيرة بعلم الظاهر، فإن أهل التصوف تكفلوا بفقه الباطن وسموا هذا الفقه بالتصوف ولو أنهم سموه بعلم التزكية أو بالإحسان أو بفقه الباطن أو بالتربية الروحية لكان بذلك أجدر وأقرب للواقع، وأبعد عن الخلاف والشقاق الذي نراه حول هذه التسمية.

– وفي هذا الموضوع يقول أبو نصر السراج الطوسي رحمه الله:

(أنكرت طائفة من أهل الظاهر وقالوا: لا نعرف إلا علم الشريعة الظاهرة التي جاء بها الكتاب والسنة، وقالوا: لا معنى لقولكم علم الباطن وعلم التصوف، فنقول، وباللّه التوفيق.

إن علم الشريعة علم واحد، وهو اسم واحد يجمع معنيين: الرواية والدراية؛ فإذا جمعتهما فهو علم الشريعة الداعية إلى الأعمال: الظاهرة والباطنة، ولا يجوز أن يجرَّد القول في العلم: أنه ظاهر أو باطن لأن العلم متى ما كان في القلب فهو باطن فيه، إلى أن يجري ويظهر على اللسان؛ فإذا جرى على اللسان فهو ظاهر، غير أنّا نقول:

إن العلم: ظاهر، وباطن، وهو علم الشريعة الذي يدل ويدعو إلى الأعمال الظاهرة والباطنة، والأعمال الظاهرة كأعمال الجوارح الظاهرة، وهي العبادات والأحكام، مثل الطهارة والصلاة والزكاة والصوم والحج والجهاد وغير ذلك؛ فهذه العبادات، وأما الأحكام فالحدود والطلاق والعتاق والبيوع والفرائض والقصاص وغيرها، فهذا كله على الجوارح الظاهرة التي هي الأعضاء، وهي الجوارح، وأما الأعمال الباطنة فكأعمال القلوب وهي المقامات والأحوال، مثل التصديق، والإيمان، واليقين، والصدق، والإخلاص، والمعرفة، والتوكل، والمحبة، والرضا، والذكر، والشكر، والإنابة، والخشية، والتقوى، والمراقبة، والفكرة والاعتبار، والخوف، والرجاء، والصبر، والقناعة، والتسليم، والتفويض، والقرب، والشوق، والوجد، والوجل، والحزن، والندم، والحياء، والخجل، والتعظيم، والإجلال، والهيبة، ولكل عمل من هذه الأعمال الظاهرة والباطنة علمٌ وفقه وبيان وفهم وحقيقة ووجد، ويدل على صحة كل عمل منها من الظاهر والباطن آيات من القرآن وأخبار عن الرسول ﷺ علمه من علمه، وجهله من جهله؛ فإذا قلنا: علم الباطن أردنا بذلك علم أعمال الباطن

التي هي على الجارحة الباطنة، وهي القلب، كما أنا إذا قلنا: علم الظاهر أشرنا إلى علم الأعمال الظاهرة التي هي على الجوارح الظاهرة، وهي الأعضاء.

وقد قال الله تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾[1].

فالنعمة الظاهرة ما أنعم الله تعالى بها على الجوارح الظاهرة من فعل الطاعات، والنعمة الباطنة ما أنعم الله تعالى بها على القلب من هذه الحالات، ولا يستغنى الظاهر عن الباطن ولا الباطن عن الظاهر، وقد قال الله ﷻ: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾[2].

فالعلم المستنبط هو العلم الباطن، وهو علم أهل التصوّف، لأن لهم مستنبطات من القرآن والحديث غير ذلك، ونحن نذكر إن شاء الله طرفاً من ذلك؛ فالعلم ظاهر وباطن، والقرآن ظاهر وباطن، وحديث رسول الله ﷺ ظاهر وباطن، والإسلام ظاهر وباطن، ولأصحابنا في معنى ذلك استدلالات واحتجاجات من الكتاب والسنة والعقل، وشرحه يطول ويخرج على حدّ الاختصار إلى حد الإكثار، وفيما قلنا كفاية، وبالله التوفيق)[3].

- وهنا يجب أن نعلم أن الشريعة لها فقهها الظاهري وفقهها الباطني والمسلم الكامل والداعي الناجح هو من يتعلم ويتمسك ويعمل بكلا الفقهين.

فمن تعلم الفقه الظاهري وترك الفقه الباطني فهو لم يتعلم دينه كاملاً، ومن تعلم الفقه الباطني وترك الفقه الظاهري فهو لم يتعلم دينه كاملاً أيضاً.

ومن تمسك بأحدهما ونادى به عالياً دون الآخر فلا يعد دينه كاملاً.

---

(١) سورة لقمان: ٢٠

(٢) سورة النساء: ٨٣

(٣) أبو نصر السراج: اللمع ص٤٣-٤٤.

لذلك من ادّعى التصوف و لم يتعلم الفقه الظاهري و لم يعمل به فلا يعتد به ولا يكون قدوة لغيره ولا يمثل الإسلام بكامله.

ومن ادّعى التصوف و لم يتمسك بالشريعة أي بالقرآن والسنة فليس له من الإسلام حظ ولا صلة.

- ولا أدل على هذه الحقائق من الذي ورد عن كبار علماء أهل التصوف في ذلك.

قال الإمام سهل التستري[1]: (أصولنا ستة: التمسك بكتاب اللّه، والاقتداء بسنة رسول اللّه ﷺ، وأكل الحلال، وكف الأذى، واجتناب الآثام، وأداء الحقوق)[2].

وقال أبو يزيد البسطامي: (لو نظرتم إلى رجل أُعطي الكرامات حتى يرتقي في الهواء، فلا تغتروا به حتى تجدوه عند الأمر والنهي، وحفظ الحدود وأداء الشريعة)[3].

ويقول الجنيد: (الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا من اقتفى أثر الرسول ﷺ)[4].

ويقول أيضاً: (من لم يحفظ القرآن، و لم يكتب الحديث لا يقتدى به في

---

(١) سهل التستري: هو أبو محمد سهل بن عبد الله بن يونس التستري، أحد أئمة الصوفية وعلمائهم والمتكلمين في علوم الإخلاص والرياضيات وعيوب الأفعال. توفي سنة (٢٨٣ هـ/٨٩٦م) [الأعلام للزركلي]

(٢) دائرة معارف الشعب، جـ٣ ص٤٨١.

(٣) القشيري: الرسالة القشيرية، ص١٣.

(٤) أبو نعيم: حلية الأولياء، جزء٤، ص٣٧٥.

هذا الأمر، لأن عملنا هذا مقيد بالكتاب والسنة)[1].

وقال الشيخ أبو القاسم النصر أباذي[2] رحمه الله:

(أصل التصوف ملازمة الكتاب والسنة وترك الأهواء والبدع ورؤية أعذار الخلائق والمداومة على الأوراد وترك الرخص والتأويلات)[3].

وقال ابن عطاء الله السكندري[4]: (من ألزم نفسه آداب السنة نور الله قلبه بنور المعرفة، ولا مقام أشرف من مقام متابعة الحبيب ﷺ في أوامره وأفعاله وأخلاقه)[5].

وقال أبو حمزة البغدادي[6]: (لا دليل على الطريق إلى الله إلا متابعة

---

(١) المصدر نفسه، جزء٤، ص٣٧٣.

(٢) النصر أباذي: هو أبو القاسم إبراهيم بن محمد النصر أباذي نسبة إلى نصر أباذ محلة من محال نيسابور وهو شيخ نيسابور، المحدث والمؤرخ.صحب الشبلي، وأبا على الروذباري، والمرتعش، وغيرهم. وهو أستاذ أبي عبد الرحمن السلمي. مات بمكة ودفن بقرب الفضيل سنة (٣٦٧هـ) [طبقات الأولياء].

(٣) ابن الملقن: طبقات الأولياء، ص٥.

(٤) تاج الدين أبو الفضل أحمد بن محمد بن عبد الكريم بن عطاء الله السكندري المالكي الصوفي الواعظ المذكر، وكان رجلاً صالحاً عالماً يتكلم على كرسي ويحضر ميعاده خلق كثير، وكان لوعظه تأثير في القلوب، وكان له معرفة تامة بكلام أهل الحقائق وأرباب الطريق توفي بالقاهرة سنة (٧٠٩هـ).
[النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: ابن تغري بردي]

(٥) أبو نعيم: حلية الأولياء، جزء٤، ص٤٠٠.

(٦) أبو حمزة البغدادي: محمد بن إبراهيم البغدادي الصوفي. جالس بشراً الحافي، والإمام أحمد. وصحب السري بن المغلس. وكان بصيراً بالقراءات. وكان كثير الرباط والغزو. توفي سنة (٢٦٩هـ). [سير أعلام النبلاء]

الرسول ﷺ في أحواله وأقواله وأفعاله)[1].

أما حجة الإسلام أبو حامد الغزالي فقال عن الصوفي: (إن سالك سبيل اللّه قليل والدَّعِيّ فيه كثير ونحن نعرفك علامتين له:

الأولى: أن تكون جميع أفعاله موزونة بميزان الشرع موقوفة على توقيفاته إيراداً وإصداراً وإقداماً وإحجاماً، إذ لا يمكن سلوك السبيل إلا بعد التلبس بمكارم الشريعة كلها.

الثانية: لا يصل إليه إلا من واظب على جملة من النوافل فكيف يصل إليه من أهمل الفرائض)[2].

وقد تحدث الإمام أحمد بن تيمية رحمه اللّه تعالى عن تمسك الصوفية بالكتاب والسنة في الجزء العاشر من مجموعة فتاويه فقال: (فأما المستقيمون من السالكين كجمهور مشايخ السلف مثل الفضيل بن عياض، وإبراهيم بن أدهم، وأبي سليمان الداراني، ومعروف الكرخي، والسري السقطي، والجنيد ابن محمد، وغيرهم من المتقدمين ومثل الشيخ عبد القادر الجيلاني والشيخ حماد، والشيخ أبي البيان، وغيرهم من المتأخرين، فلا يسوغون للسالك ولو طار في الهواء أو مشى على الماء أن يخرج عن الأمر والنهي الشرعيين، بل عليه أن يعمل المأمور ويدع المحظور إلى أن يموت، وهذا هو الحق الذي دل عليه الكتاب والسنة وإجماع السلف، وهذا كثير في كلامهم)[3].

---

(١) ابن منظور: مختصر تاريخ دمشق، جزء٦، ص٤١٩.

(٢) أبو حامد الغزالي: ميزان العمل ص١٤٥.

(٣) ابن تيمية: مجموع الفتاوى، ج١٠، ص٥١٦-٥١٧.

هذا ويصفهم في موضع آخر بأنهم من أكمل صدِّيقي زمانهم[1].

- من كل ما ورد نخلص إلى أن التصوف يدعو إلى التمسك بالكتاب والسنة وما كان مخالفاً لهما فليس من التصوف، وإنما هو بدعة أو دس أو افتراء أو مصلحة ذاتية أو هوى نفس ممن ادعى التصوف، والتصوف منه براء.

(١) ابن تيمية: مجموع الفتاوى، ج١١، ص١٣.

ما السبب في أن التصوف لم يظهر إلا بعد عهد الصحابة والتابعين؟

- يجيب على هذا السؤال المهم الدكتور أحمد علوش[1] فيقول:

(قد يتساءل الكثيرون عن السبب في عدم ظهور هذه الدعوة إلا بعد عهد الصحابة والتابعين والجواب عن هذا: أنه لم تكن ثمة حاجة إليها في العصر الأول، لأن أهل ذاك العصر كانوا أهل تقىً وورع، وأرباب مجاهدة وإقبال على العبادة بطبيعتهم، وبحكم قرب اتصالهم برسول اللّه ﷺ، كانوا يتسابقون ويتبادرون في الاقتداء به في ذلك كله، فلم يكن ثمة ما يدعو إلى تلقينهم علماً يرشدهم إلى أمر هم قائمون به فعلاً، وإنما مثلهم في ذلك كله كمثل العربي القحٍّ، يعرف اللغة العربية بالتوارث كابراً عن كابر حتى إنه ليقرض الشعر البليغ بالسليقة والفطرة دون أن يعرف شيئاً من قواعد اللغة والإعراب والنظم والقريض، فمثل هذا لا يلزمه أن يتعلم النحو ودروس البلاغة، ولكن علم النحو وقواعد اللغة والشعر تصبح لازمة وضرورية عند تفشي اللحن، وضعف التعبير، أو لمن يريد من الأجانب أن يتفهمها ويتعرف عليها، أو عندما يصبح هذا العلم ضرورة من ضرورات الاجتماع كبقية العلوم التي نشأت وتألفت على توالي العصور في أوقاتها المناسبة.

فالصحابة والتابعون، وإن لم يتسموا باسم المتصوفين - كانوا صوفيين فعلاً وإن لم يكونوا كذلك اسماً، وماذا يراد بالتصوف أكثر من أن يعيش المرء لربه لا لنفسه، ويتحلى بالزهد وملازمة العبودية، والإقبال على اللّه بالروح

---

(١) أحمد علوش: هو من الرواد الأوائل الذين نقلوا حقائق التصوف الإسلامي إلى اللغات الأجنبية وكان له أكبر الأثر في تصحيح الأفكار والرد على المستشرقين [نقلاً عن الموسوعة اليوسفية ص١٦].

والقلب في جميع الأوقات وسائر الكمالات التي وصل بها الصحابة والتابعون من حيث الرقي الروحي إلى أسمى الدرجات، فهم لم يكتفوا بالإقرار في عقائد الإيمان، والقيام بفروض الإسلام، بل قرنوا الإقرار بالتذوق والوجدان، وزادوا على الفروض الإتيان بكل ما استحبه الرسول ﷺ من نوافل العبادات، وابتعدوا عن المكروهات فضلاً عن المحرمات، حتى استنارت بصائرهم، وتفجرت ينابيع الحكمة من قلوبهم، وفاضت الأسرار الربانية على جوانحهم، وكذلك كان شأن التابعين وتابعي التابعين، وهذه العصور الثلاثة كانت أزهى عصور الإسلام وخيرها على الإطلاق، وقد جاء عن رسول الله ﷺ قوله: «خير القرون قرني هذا فالذي يليه والذي يليه»[1] فلما تقادم العهد، ودخل في حظيرة الإسلام أممٌ شتى، وأجناس عديدة، واتسعت دائرة العلوم وتقسمت وتوزعت بين أرباب الاختصاص، قام كل فريق بتدوين الفن والعلم الذي يجيده أكثر من غيره، فنشأ بعد تدوين النحو في الصدر الأول علم الفقه، وعلم التوحيد، وأصول الدين، وعلوم الحديث، والتفسير، والمنطق ومصطلح الحديث، وعلم الأصول، والفرائض (الميراث) وغيرها...

وحدث بعد هذه الفترة أن أخذ التأثير الروحي يتضاءل شيئاً فشيئاً، وأخذ الناس يتناسون ضرورة الإقبال على الله بالعبودية، والقلب والهمة، مما دعا أرباب الرياضة والزهد إلى أن يعملوا هُم من ناحيتهم أيضاً على تدوين علم التصوف، وإثبات شرفه وجلاله وفضله على سائر العلوم، ولم يكن ذلك منهم احتجاجاً على انصراف الطوائف الأخرى إلى تدوين علومهم - كما يظن ذلك - خطأً بعضُ المستشرقين - بل كان سداً للنقص، واستكمالاً

---

(١) متفق عليه.

لحاجات الدين في جميع نواحي النشاط، مما لا بد منه لحصول التعاون على تمهيد أسباب البر والتقوى)[1].

- كما أن أبا نصر السراج الطوسي أجاب على هذا السؤال فقال في باب الرد على من قال: لم نسمع بذكر الصوفية في القديم وهو اسم مُحْدَث:

(إن سأل سائلٌ فقال: لم نسمع بذكر الصوفية في أصحاب رسول اللّه ﷺ رضي الله عنهم أجمعين، ولا فيمن كان بعدهم، ولا نعرف إلا العبَّاد والزهَّاد والسيَّاحين والفقراء؛ وما قيل لأحد من أصحاب رسول اللّه ﷺ: «صوفيٌّ»، فنقول وباللّه التوفيق:

الصُّحبة مع رسول اللّه ﷺ لها حرمة، وتخصيص من شمله ذلك، فلا يجوز أن يعلق عليه اسم على أنه أشرفُ من الصحبة، وذلك لشرف رسول اللّه ﷺ وحرمته، ألا ترى أنهم أئمة الزهَّاد والعبَّاد والمتوكلين والفقراء والراضين والصابرين والمخبتين، وغير ذلك، وما نالوا جميع ما نالوا إلا ببركة الصحبة مع رسول اللّه ﷺ، فلمَّا نُسبوا إلى الصحبة التي هي أجلُّ الأحوال استحال أن يفضلوا بفضيلة غير الصحبة التي هي أجلُّ الأحوال وباللّه التوفيق.

- وأما قول القائل: إنه اسم محدث أحدثه البغداديون، فمحال، لأن في وقت الحسن البصري رحمه اللّه كان يُعرف هذا الاسم، وكان الحسن قد أدرك جماعة من أصحاب رسول اللّه ﷺ ورضي عنهم، وقد رُوى عنه أنه قال: رأيتُ صوفياً في الطواف فأعطيته شيئاً فلم يأخذه وقال: معي أربعة دوانيق فيكفيني ما معي).

---

(١) مجلة العشيرة المحمدية عدد محرم (١٣٧٦هـ) من بحث التصوف من الوجهة التاريخية للدكتور أحمد علوش.

- ورُوي عن سفيان الثوري رحمه اللّه أنه قال: (لولا أبو هاشم الصوفي ما عرفت دقيق الرياء)[1].

- ولخص ابن خلدون الإجابة على هذا السؤال فقال:

(وهذا العلم يعني التصوف من العلوم الشرعية الحادثة في الملّة وأصله أن طريقة هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم طريقة الحق والهداية، وأصلها العكوف على العبادة، والانقطاع إلى اللّه تعالى، والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهد في ما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه، والانفراد عن الخلق، والخلوة للعبادة، وكان ذلك عاماً في الصحابة والسلف، فلما فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده، وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا، اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية)[2].

- ويقول الشاطبي[3] ناقلاً عن أبي القاسم القشيري ما يلي:

(إنهم إن اختصوا باسم التصوف انفراداً به عن أهل البدع فذكر أن المسلمين بعد رسول اللّه ﷺ لم يتسم أفاضلهم في عصرهم باسم علم سوى الصحبة إذ لا فضيلة فوقها ثم سمى من يليهم التابعين ورأوا هذا الاسم أشرف الأسماء ثم قيل لمن بعدهم اتباع التابعين ثم اختلف الناس وتباينت المراتب فقيل لخواص الناس ممن لهم شدة عناية في الدين: الزهاد والعباد وقال: ثم ظهرت

---

(١) اللمع، ص٤٢.

(٢) ابن خلدون:المقدمة، علم التصوف ص٣٢٩.

(٣) الشاطبي: هو أبو إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي، الغرناطي، المالكي الشهير بالشاطبي، محدث، فقيه أصولي، لغوي، مفسر. له مؤلفات عديدة، توفي سنة (٧٩٠ هـ/١٣٨٨م).

البدع وأدعى كل فريق أن منهم زهاداً وعباداً فانفرد خواص أهل السنة الراعون أنفسهم من اللّه، الحافظون قلوبهم عن الغفلة باسم التصوف)[1].

– من هذه النصوص السابقة، يتبين لنا أن التصوف ليس أمراً مستحدثاً جديداً، ولكنه مأخوذ من توجيهات القرآن الكريم، وسيرة الرسول ﷺ، وحياة أصحابه الكرام، ومن تبعهم بإحسان، ولم يظهر اسم التصوف في عهد النبي وصحابته لأن الإسلام كلٌ لا يتجزأ وقد ظهر الإسلام في حياتهم كلها، تطبيقاً عملياً، فلما توسعت رقعة الإسلام، وانتشر في ربوع البلاد المختلفة، وحدث الاختلاط بالأقوام الأخرى من جهة، وأخذ العلماء يتخصصون به في ميادين العلوم الإسلامية من جهة أخرى، اهتم أناس بفقه الباطن والتطبيق العلمي للأخلاق والسلوك الإسلامي، والعودة بالإسلام إلى جوهره وحقيقته وأخلاقه وما كان عليه عهد النبي وصحابته وسموا بذلك تسمية تخصصية وهي الصوفية.

– ويؤيد كل ذلك ما قاله الإمام الغزالي في كتاب عوارف المعارف:

(وقيل لم يعرف هذا الاسم إلى المائتين من الهجرة النبوية، لأن في زمن رسول اللّه ﷺ كان أصحاب رسول اللّه ﷺ يسمون الرجل صحابياً لشرف صحبة رسول اللّه ﷺ وكون الإشارة إليها أولى من كل إشارة، وبعد انقراض عهد رسول اللّه، من أخذ منهم العلم سمي تابعياً، ثم لما تقادم زمن الرسالة، وبعد عهد النبوة وانقطع الوحي السماوي، وتوارى النور المصطفوي، واختلفت الآراء وتنوعت الأنحاء، وتفرد كل ذي رأي برأيه، وكدر شرب العلم شوب الأهوية، وتزعزعت أبنية المتقين، واضطربت عزائم الزاهدين، وغلبت الجهالات وكثف حجابها، وكثرت العادات وتملكت أربابها،

(١) الشاطبي: الاعتصام، جـ١، ص٨٩.

وتزخرفت الدنيا وكثر خطابها، تفرد طائفة بأعمال صالحة وأحوال سنية وصدق عزيمة وقوة في الدين، وزهدوا في الدنيا ومحبتها، واغتنموا العزلة والوحدة، واتخذوا لنفوسهم زوايا يجتمعون فيها تارة وينفردون أخرى أسوة بأهل الصفة وتهيأ لهم صفاء الفهوم لقبول العلوم، وصار لهم بعد اللسان لسان، وبعد العرفان عرفان، وبعد الإيمان إيمان، كما قال حارثة أصبحت مؤمناً حقاً، حيث كوشف برتبة من الإيمان غير ما يتعاهدها، فصار لهم بمقتضى ذلك علوم يعرفونها، وإشارات يتعاهدونها، فحرروا لنفوسهم اصطلاحات تشير إلى معان يعرفونها، وتعرب عن أحوال يجدونها، فأخذ ذلك الخلف من السلف، حتى صار ذلك رسماً مستمراً وخبراً مستقراً في كل عصر وزمان فظهر هذا الاسم بينهم وتَسَمَّوْا به وسموا به، فالإسلام سمتهم، والعلم باللّه صفتهم، والعبادة حليهم، والتقوى شعارهم، وحقائق الحقيقة أسرارهم)[1].

(١) ملحق إحياء علوم الدين، ص٦٦.

موقف السلف الصالح من التصوف

- إن أهم ما يزيل كل لبس أو نقد أو فكرة تعترض المسلم فيما يتعلق بموضوع التصوف، هو موقف ورأي وأقوال السلف الصالح، من العلماء الأكابر، في هذا الموضوع، فموقفهم وأقوالهم وآراؤهم في التصوف -وهم الأقرب من الشريعة وعهد النبوة زمناً وعلماً وتقديراً للأمور- هو الحكم الفصل، لا موقف وأقوال وآراء المبغضين أو الحاسدين أو المغرضين أو مدعي العلم أو غيرهم من الأبواق التي تتحدث بألسنة غيرهم دون علم أو فهم أو تبين.

- هؤلاء السلف الذين كانوا من أكابر العلماء في الفقه وغيره من العلوم الإسلامية والذين اشتغلوا وقتئذ في الدراسة والبحث والاستنباط ومع ذلك لم يمنعهم ذلك من اتباع طريقة التصوف أو مصاحبة أصحابها أو الاستفادة منهم.

- وإليك بعض مواقف السلف الصالح من التصوف من خلال أقوالهم:

أولاً: الإمام مالك رحمه اللّه تعالى:

يقول الإمام مالك رحمه اللّه تعالى: (من تفقه و لم يتصوف فقد تفسق، ومن تصوف و لم يتفقه فقد تزندق ومن جمع بينهما فقد تحقق) [1].

وهذا يدلنا على أن الإمام مالك يدعو إلى الجمع بين فقه الظاهر وفقه الباطن.

---

(١) كتاب: (الشفا بالقاضي) شرح ملا علي القارئ جزء ٥ ص ٤٠٨ وذكرها أيضاً في كتابه (عين العلم وزين الحلم) جزء ١ ص ٣٣ ونقلها كذلك العلامة العدوي على شرح الإمام أبي الحسن في الفقه المالكي جزء ٢ ص ١٩٥.

ومعنى قوله هذا أي من تعلم الفقه -و هو الفقه الظاهري- و لم يتصوف أي و لم يتعلم -الفقه الباطني- فقد تفسق أي يُخشى عليه من الفسق- أي الخروج عن المقاصد الحقيقية من أحكام الشرع.

وقوله ومن تصوف-أي سار في طريق أهل التصوف-، و لم يتفقه- أي لم يجالس علماء الفقه-فقد تزندق -أي يُخشى عليه من أن يصبح زنديقاً بعيداً عن الدين بتلبسه ببدع نتيجة جهله بالأحكام الشرعية-.

ومن جمع بين الفقه والتصوف، فقد تحقق- أي وصل إلى الحقيقة الصحيحة في فهم الدين وتطبيقه-.

ثانياً: الإمام أبو حنيفة رحمه اللّه تعالى:

(نقل الفقيه الحنفي الحصكفي[1] صاحب الدر: أن أبا علي الدقاق رحمه اللّه تعالى قال: أنا أخذت هذه الطريقة من أبي القاسم النصر أبادي، وقال أبو القاسم: أنا أخذها من الشبلي، وهو من السري السقطي، وهو من معروف الكرخي، وهو من داود الطائي، وهو أخذ العلم والطريقة من أبي حنيفة النعمان ﷺ وكل منهم أثنى عليه وأقر بفضله)[2].

وهذا يدلنا أن الإمام أبا حنيفة كان صاحب علم وهو صاحب المذهب، وصاحب طريقة فقد جمع فقه الظاهر وفقه الباطن.

---

(١) ابن الملا الحصكفي: أحمد بن محمد بن علي الحصكفي، فاضل عارف بالأدب، له شعر حسن. أصله من حصن كيفا، ونسبته إليها. ولد في حلب وأقام فيها. له كتب ورسائل كثيرة توفي سنة (١٠٠٣ هـ/ ١٥٩٥م) [الأعلام للزركلي]

(٢) الحصكفي: الدر المختار ج١، ص٤٣ وعليه حاشية ابن عابدين -وكل من ذكر في هذه المقالة من الأشخاص هم من رجالات الصوفية المشهورين- ومع ذلك فإن أخذهم كان عن الفقيه المشهور صاحب المذهب أبي حنيفة.

ثالثاً: الإمام الشافعي رحمه الله تعالى:

(يقول صحبت الصوفية فاستفدت منهم ثلاث كلمات:

قولهم: الوقت سيف إذا لم تقطعه قطعك.

وقولهم: نفسك إن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل.

وقولهم: العدم عصمة)[1]. أي عدم حب الظهور أمام الآخرين عصمة من الوقوع في الخطأ لأن الظهور لمن لا يحسن الظهور تكسر الظهور.

ويقول أيضاً: (حبب إلي من دنياكم ثلاث: ترك التكلف، وعشرة الخلق بالتلطف، والاقتداء بطريق أهل التصوف)[2].

وهذا يدلنا على أن الإمام الشافعي صحب أهل التصوف وانتفع بهم وحبب إليه الاقتداء بطريقهم.

٤- الإمام أحمد رحمه الله تعالى[3]:

مر هذا الإمام بمرحلتين فيما يتعلق بالتصوف:

المرحلة الأولى: عدم ثقته بهم ويدل على ذلك وصيته لولده عبد الله: (يا ولدي عليك بالحديث، وإياك ومجالس هؤلاء الذين سموا أنفسهم صوفية، فإنهم ربما كان أحدهم جاهلاً بأحكام دينه).

المرحلة الثانية: الثقة بهم، والدعوة إلى مجالستهم للانتفاع بهم، ومشاورتهم والأخذ بآرائهم. وذلك عندما صاحب أبا حمزة البغدادي الصوفي وعرف أحوال القوم أصبح يقول لولده:

---

(١) جلال الدين السيوطي، تأييد الحقيقة العلية، ص١٥.

(٢) العجلوني، كشف الخفاء ومزيل الإلباس، ج١، ص٣٤١.

(٣) انظر الموسوعة اليوسفية في بيان أدلة الصوفية، ص٥٥.

(أيا ولدي عليك بمجالسة هؤلاء القوم، فإنهم زادوا علينا بكثرة العلم والمراقبة والخشية والزهد وعلو الهمة).

وكان الإمام أحمد بن حنبل مع جلالة قدره إذا توقف في مسألة يقول لأبي حمزة البغدادي ﷺ: (ما تقول في هذه المسألة يا صوفي)[1]؟ فما قال له اعتمده.

(ونقل العلامة محمد السقاريني الحنبلي رحمه اللّه تعالى عن إبراهيم بن عبد اللّه العلاني رحمه اللّه تعالى أن الإمام أحمد رحمه اللّه تعالى قال عن الصوفية: لا أعلم قوماً أفضل منهم، قيل إنهم يستمعون ويتواجدون، قال: دعوهم يفرحون مع اللّه ساعة)[2].

٥- الإمام أبو حامد الغزالي رحمه اللّه تعالى:

يقول الإمام الغزالي في كتابه (المنقذ من الضلال) بعد أن فرغ من علوم الشريعة بكتاب «الأربعين» وعلوم الفلسفة القديمة بكتاب (مقاصد الفلاسفة) وكذلك (التهافت) يقول واصفاً التصوف والصوفية: (ثم إني لما فرغت من هذه العلوم أقبلت بهمتي على طريق الصوفية، وعلمت أن طريقهم إنما يتم بعلم وعمل، وكان حاصل علمهم قطع عقبات النفس والتنـــزه عن أخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة حتى يتوصل بذلك إلى تخلية القلب من غير اللّه تعالى وتحليته بذكر اللّه وكان حينئذ العلم أيسر عليّ من العمل فابتدأت بتحصيل علمهم من مطالعة كتبهم مثل قوت القلوب لأبي طالب المكي رحمه اللّه وكتب الحارث المحاسبي والمتفرقات المأثورة عن الجنيد والشبلي وأبي يزيد البسطامي وغير ذلك من كلام مشايخهم حتى اطلعت على كنْهِ مقاصدهم العلمية، وحصلت على ما

---

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ص٢٨١.

(٢) ابن مفلح: الفروع، جزء٩، ص٣٥٣.

يمكن أن يحصل المرء من طريقتهم بالتعليم والسماع فظهر لي أن أخص خصائصهم لا يمكن الوصول إليه بمجرد العلم بل بالذوق والحال، وتبدل الصفات، فعلمت يقيناً أنهم أرباب أحوال لا أصحاب أقوال.

والقدر الذي أذكره لينتفع به هو أني علمت يقيناً أن الصوفية هم السالكون لطريق اللّه تعالى.

وأن سيرتهم أحسن السير وطريقهم أصوب الطرق وأخلاقهم أزكى الأخلاق بل لو جمع عقل العقلاء وحكمة الحكماء وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء ليغيروا شيئاً من سيرهم وأخلاقهم ويبدلوه بما هو خير منه لم يجدوا إلى ذلك سبيلا وإن جميع حركاتهم وسكناتهم في ظاهرهم وباطنهم مقتبسة من نور مشكاة النبوة وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به، فأيقنت أنهم الفرقة الناجية وماذا يقول القائلون في طريقة أول شروطها: تطهير القلب بالكلية عما سوى اللّه تعالى، وعمادها ومفتاحها الجاري منها مجرى الإحرام في الصلاة: استغراق القلب بالكلية بذكر اللّه، وآخرها: الفناء بالكلية في اللّه)[1].

٦- الإمام القشيري رحمه اللّه تعالى:

وقال الإمام أبو القاسم القشيري رحمه اللّه تعالى في مقدمة رسالته المشهورة متحدثاً عن الصوفية: (جعل اللّه هذه الطائفة صفوة أوليائه، وفضلهم على الكافة من عباده بعد رسله وأنبيائه صلوات اللّه وسلامه عليهم، وجعل قلوبهم معادن أسراره، واختصهم من بين الأمة بطوالع أنواره، فهم الغياث للخلق، والدائرون في عموم أحوالهم مع الحق بالحق، صفاهم من

(١) أبو حامد الغزالي: المنقذ من الضلال، تحقيق د. عبد الرحيم محمود ص١٤٥.

كدورات البشرية ورقاهم إلى محل المشاهدات بما تجلى لهم من حقائق الأحدية، ووفقهم للقيام بآداب العبودية وأشهدهم مجاري أحكام الربوبية، فقاموا بأداء ما عليهم من واجبات التكليف، وتحققوا بما منّه سبحانه لهم من التقليب والتصريف ثم رجعوا إلى اللّه سبحانه وتعالى بصدق الافتقار ونعت الانكسار، ولم يتكلموا على ما حصل منهم من الأعمال أو صفا لهم من الأحوال، علماً منهم بأنه جلّ وعلا يفعل ما يريد، ويختار من يشاء من العبيد، لا يحكم عليه خلق، ولا يتوجه عليه لمخلوق حق، ثوابه ابتداء فضل، وعذابه حكم بعدل، وأمره قضاء فصل)[1].

٧- الشيخ تاج الدين السبكي[2] رحمه اللّه تعالى:

وقال الشيخ تاج الدين السبكي رحمه اللّه تعالى: (حياهم اللّه وبياهم وجمعنا في الجنة نحن وإياهم، وقد تشعبت الأقوال فيهم تشعباً ناشئاً عن الجهل بحقيقتهم لكثرة المتلبسين بها إلى أن قال وإنهم المعرضون عن الدنيا المشتغلون في أغلب الأوقات بالعبادة)[3]. ثم تحدث عن تعاريف التصوف إلى أن قال: (والحاصل أنهم أهل اللّه وخاصته الذين ترتجى الرحمة بذكرهم ويستنـــزل الغيث بدعائهم فرضي اللّه عنهم وعنا بهم)[4].

---

(١) القشيري: الرسالة القشيرية، ص٢.

(٢) تاج الدين السبكي: هو أبو نصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي السبكي نسبته إلى سبك (من أعمال المنوفية بمصر) ، قاضي القضاة، المؤرخ، الباحث وكان طلق اللسان، قوي الحجة. ولد في القاهرة، وانتقل إلى دمشق مع والده، فسكنها وتوفي بها سنة (٧٧١ هـ/١٣٧٠م). [الأعلام للزركلي]

(٣) تاج الدين السبكي: معيد النعم ومبيد النقم، ص١١٩.

(٤) المرجع نفسه.

٨- الإمام فخر الدين الرازي رحمه اللّه تعالى:

قال العلامة الكبير والمفسر الشهير الإمام فخر الدين الرازي رحمه اللّه تعالى في كتابه اعتقادات فرق المسلمين والمشركين: (الباب الثامن في أحوال الصوفية: اعلم أن أكثر من حصر فرق الأمة لم يذكر الصوفية وذلك خطأ لأن حاصل قول الصوفية أن الطريق إلى معرفة اللّه تعالى هو التصفية والتجرد من العلائق البدنية، وهذا طريق حسن... وقال أيضاً: والمتصوفة قوم يشتغلون بالفكر وتجرد النفس عن العلائق الجسمانية، ويجتهدون أن لا يخلو سرهم وبالهم عن ذكر اللّه تعالى في سائر تصرفاتهم وأعمالهم، منطبعون على كمال الأدب مع اللّه ﷻ، وهؤلاء هم خير فرق الآدميين)[1].

٩- الإمام ابن عابدين[2] رحمه اللّه تعالى:

وتحدث خاتمة المحققين العلامة الكبير والفقيه الشهير الشيخ محمد أمين المشهور بابن عابدين رحمه اللّه تعالى: عن البدع الدخيلة على الدين مما يجري في المآتم والختمات من قبل أشخاص تزيوا بزي العلم وانتحلوا اسم الصوفية ثم استدرك الكلام عن الصوفية الصادقين حتى لا يظن أنه يتكلم عنهم عامة فقال:

(ولا كلام لنا مع الصُّدَّق من ساداتنا الصوفية المبرَّئين عن كل خصلة ردية، فقد سئل إمام الطائفتين سيدنا الجنيد: إن أقواماً يتواجدون ويتمايلون؟ فقال: دعوهم مع اللّه تعالى يفرحون، فإنهم قوم قطعت الطريق أكبادهم

---

(١) فخر الدين الرازي: اعتقادات فرق المسلمين والمشركين، ص٧٢.

(٢) ابن عابدين: أحمد بن عبد الغني بن عمر المشهور بابن عابدين: فقيه حنفي، ولد ومات في دمشق (١٣٠٧هـ/١٨٨٩م). عين أمينا للفتوى مع السيد محمود حمزة مفتي دمشق. [الأعلام للزركلي]

ومزق النصب فؤادهم وضاقوا ذرعاً، فلا حرج عليهم إذا تنفسوا مداواة لحالهم، ولو ذقت مذاقهم عذرتهم في صياحهم)[1].

١٠- الدكتور أبو الوفا التفتازاني:

يقول فضيلة الدكتور أبو الوفا التفتازاني: (ليس التصوف هروباً من واقع الحياة كما يقول خصومه، وإنما هو محاولة الإنسان للتسلح بقيم روحية جديدة، تعينه على مواجهة الحياة المادية، وتحقق له التوازن النفسي حتى يواجه مصاعبها ومشكلاتها.

وفي التصوف الإسلامي من المبادئ الإيجابية ما يحقق تطور المجتمع إلى الأمام فمن ذلك أنه يؤكد على محاسبة الإنسان لنفسه باستمرار ليصحّح أخطاءها ويكملها بالفضائل، ويجعل فطرته إلى الحياة معتدلة، فلا يتهالك على شهواتها وينغمس في أسبابها إلى الحد الذي ينسى فيه نفسه وربه، فيشقى شقاءً لا حد له. والتصوف يجعل من هذه الحياة وسيلة لا غاية، وبذلك يتحرر تماماً من شهواته وأهوائه بإرادة حرة)[2].

(١) الرسالة السابعة، شفاء العليل وبل الغليل في حكم الصوفية بالختمات والتهاليل، ص١٧٢-١٧٣.

(٢) أبو الوفا التفتازاني: مدخل إلى التصوف الإسلامي.

موقف أئمة الحركة السلفية في الصوفية

– من تعمق في دراسة أهل العلم الحقيقيين والصادقين في مسعاهم، والمخلصين في أهدافهم وغاياتهم ونياتهم، والغيورين على دينهم في نشر العلم الصحيح، والبعد عن البدع والخرافات، والزيغ والانحرافات، والمتمسكين بالقرآن والسنة.

– من تتبع حياتهم وأعمالهم وأفكارهم يجدهم يسيرون نحو هدف واحد وإن اختلفت مسالكهم. ولا يجد بينهم اختلافاً، بل يجد في أقوال بعضهم في بعض إنصافاً ووقوفاً عند الحق، بينما يجد عند بعض من أتى بعدهم وانتسب إليهم، وخاصة من ابتعد عنهم في العلم والعصر، وخالفهم في بعض ما تمسكوا به، يجد عنده الخلل والخلاف والبعد والتمزق والشقاق، والآراء المختلفة التي ربما خرجت عن جوهر الأصل بل خالفته، وسعت في الأرض فساداً.

– انطلاقاً من هذا الكلام فإننا لم نسمع عن أحد من أهل السلف انتقاداً لأهل التصوف إلا لمن شذ عنهم أو انحرف، وأهل التصوف أنفسهم ينبذونه، وكذلك لم نسمع من أهل التصوف انتقاداً لأحدٍ من أهل السلف ولو ابتعد عن طريقتهم ومذهبهم.

– وإذا كان أهل السلف ينطلقون من الكتاب والسنة فإن أهل التصوف أيضاً يعتمدون على الكتاب والسنة فكيف يوجد بينهما اختلاف أو شقاق.

– ويؤيد هذا الكلام ما كتبه الشيخ عبد الحفيظ المكي وهو من علماء مكة المكرمة، فقد ذكر قول الشيخ محمد عبد الوهاب وابن تيمية وابن القيم وابن رجب الحنبلي وابن كثير والحافظ الذهبي وأخيراً ذكر رأي الإمام أحمد ابن حنبل وقد قال في المقدمة:

(وهكذا نسمع بين حين وآخر من ينادي بأن التصوف كله باطل وأن الصوفية طائفة زائفة لا علاقة لها بالإسلام، بل إنهم أعداء للدين وأن أصلهم من اليونان أو بوذية الهند.. إلى آخر ذلك من الترهات. وهذا كله أيضاً مع الأسف الشديد باسم (السلفية المسكينة).

مع أن الواقع بخلاف ذلك، فإن الصوفية عند أئمة الحركة السلفية وسادتهم، طائفة إسلامية مثل بقية الطوائف الإسلامية الأخرى كالمحدثين والفقهاء والمتكلمين والمؤرخين والمجاهدين وغيرهم، فيهم المصيب والمخطئ والصالح والطالح، والأصلي والمزيف. ولكن إذا أطلق اللفظ فإنه يراد به دائماً: الصالح والمصيب والصحيح منهم، فمثلاً لو قلنا: «المحدثون» فالمراد بهم عند الجميع المحدثون الصالحون الذين حفظوا على الأمة أحاديث رسول الله ﷺ وخدموها وبلغوها ونشروها بالطريقة المرضية كالأئمة: البخاري ومسلم والترمذي وابن حجر العسقلاني والسيوطي والكاندهلوي وغيرهم.

ولا يراد بكلمة (المحدثون) مطلقاً، عند أي أحد، أولئك (الدجالون الكذابون الوضاعون) المنتسبون إلى هذه الطائفة الكريمة، والذين قد بين فسادهم ودجلهم أئمة الجرح والتعديل في كل عصر وزمان كما هو معلوم للجميع.

وهكذا هو الحال في الفقهاء والمتكلمين والمجاهدين والمؤرخين وغيرهم من طوائف المسلمين وهكذا يجب أن يكون الحال في الصوفية أيضاً.

فعندما يقال الصوفية يكون المراد منهم حتماً: الفضيل بن عياض ومعروف الكرخي وأبو سليمان الداراني وبشر الحافي وعبد القادر الجيلاني والجنيد البغدادي وغيرهم ممن سار على نهجهم القويم من أصحاب الطرق المباركة المتبعة لنهج القرآن الكريم وسنة نبيه والداعين العباد على الله ﷻ

والمحبِّين برسول الله ﷺ وآله وصحبه)[1].

- فهذا هو قول الحق ومنهج الصدق وسلامة الفكر والإنصاف التام لهؤلاء الذين هم علماء الأمة ومجاهدوها ولن تجد عالماً أو مجاهداً أو تقياً قدم للإنسانية أعظم النفع بعد التابعين إلا وينطبق عليه ذلك الوصف العظيم.

- وهذا هو العلامة ابن القيم وهو من كبار الصوفية كما ذكر الإمام الحافظ ابن رجب الحنبلي بقوله: (وكان عالماً بعلم السلوك وكلام أهل التصوف وإشاراتهم ودقائقهم، له في كل فن من هذه الفنون اليد الطولى)[2].

- وتحدث ابن القيم عن التصوف فقال:

(الدين كله خلق، فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في الدين، وكذلك التصوف قال الكتاني: التصوف: هو الخلق، فمن زاد عليك في الخلق فقد زاد عليك في التصوف)[3].

- وذكر أيضاً ما نصه:

(قال أبو عبد الرحمن السلمي: سمعت محمد بن مخلد يقول سمعت جعفراً يقول سمعت الجنيد يقول: (المريد الصادق غني من العلماء)، وقال أيضاً: سمعت الجنيد يقول: (إذا أراد الله بالمريد خيراً أوقعه إلى الصوفية ومنعه صحبة القراء))[4].

---

(١) عبد الحفيظ المكي: كتاب موقف أئمة الحركة السلفية من التصوف والصوفية.

(٢) ابن رجب الحنبلي: الذيل على طبقات الحنابلة جـ٢ ص٤٤٨ عن ترجمة ابن القيم.

(٣) ابن القيم: مدارج السالكين عن تعريف التصوف في جـ٢، ص ٣٠٧.

(٤) المرجع نفسه ص٣٦٦.

- وقال الشافعي ﷺ: (صحبت الصوفية فما انتفعت منهم إلا بكلمتين سمعتهم يقولون: الوقت سيف فإن قطعته وإلا قطعك، ونفسك إن لم تشغلها بالحق وإلا شغلتك بالباطل.

قلت: يا لهما من كلمتين، ما أنفعهما وأجمعهما وأدلهما على علو همة قائلهما ويقظته، ويكفي في هذا ثناء الشافعي على طائفة هذا قدر كلماتهم)[1].

- كذلك لا ننسى ما مر معنا سابقاً مما قاله الشافعي في صحبته للصوفية وانتفاعه الكثير بهم.

- كذلك ولو تتبعنا مؤلفات ابن قيم الجوزية لوجدنا الكثير منها يعتبر من كتب مراجع الصوفية الهامة أذكر منها على سبيل المثال لا الحصر: (مدارج السالكين، عدة الصابرين، زاد المعاد، روضة المحبين، حادي الأرواح، بدائع الفوائد، الوابل الصيب...الخ).

- وهذا الإمام الحافظ الذهبي يذكر في ترجمته للمحدثين كثيراً من المحدثين الصوفيين:

((ابن الأعرابي)[2] الإمام الحافظ الزاهد شيخ الحرم أبو سعيد أحمد بن محمد بن زياد بن بشر بن درهم البصري الصوفي صاحب التصانيف وكان ثقة ثبتاً عارفاً ربانياً كبير القدر بُعْدَ الصيت)[3].

---

(١) المرجع السابق جـ٣ ص ١٢٨.

(٢) ابن الأعرابي: أبو سعيد أحمد بن محمد بن زياد بن بشر بن درهم،: مؤرخ من علماء الحديث. من أهل البصرة. تصوف وصحب الجنيد، وانتقل إلى الحجاز فكان شيخ الحرم المكي وتوفي بمكة سنة (٣٤٠ هـ/٩٥٢م). [الأعلام للزركلي]

(٣) الذهبي: تذكرة الحفاظ جـ٣ ٨٥٢.

- ويذكر أيضاً: ((غندر) وأما غندر الثالث فهو صوفي محدث جوال، لقي الجنيد وطبقته وكتب الحديث وسكن مصر)[1].

- ويذكر أيضاً: ((الماليني) الحافظ العالم الزاهد أبو سعد أحمد بن محمد ابن أحمد بن عبد اللّه بن حفص الأنصاري الهروي الماليني الصوفي، ويعرف أيضاً بطاووس الفقراء.. وجمع وحصل من المسانيد الكبار شيئاً كثيراً، وكان ثقة متقناً صاحب حديث ومن كبار الصوفية)[2].

- ويذكر أيضاً: ((أبو نعيم) الحافظ الكبير محدث العصر أحمد بن عبد اللّه بن أحمد بن اسحاق بن موسى بن مهران المهراني الأصبهاني الصوفي)[3].

- وفي نهاية الجزء الرابع وهو الأخير من تذكرة الحفاظ يتحدث الذهبي عمن لزمهم وسمع منهم وبعضهم كان من المتصوفة فيقول ما نصه:

(ولزمت الشيخ الإمام المحدث مفيد الجماعة أبا الحسن علي بن مسعود ابن نفيس الموصلي وسمعت منه جمله، وكان ديناً خيراً متصوفاً متعففاً.

وسمعت من مفيد الطلبة المحدث الإمام المتقن اللغوي صفي الدين محمود ابن أبي بكر الأرموي ثم القرافي الصوفي.

وسمعت من الإمام المحدث الأوحد الأكمل فخر الإسلام صدر الدين إبراهيم بن محمد بن المؤيد بن حمويه الخراساني الجويني شيخ الصوفية).

---

(١) المرجع السابق: ص٩٦١.

(٢) المرجع نفسه: ص١٠٧٠.

(٣) المرجع نفسه: ص ١٠٩٢.

- فلو كان الحافظ الذهبي وهو العالم العلامة معادياً للصوفية أو معترضاً عليهم لما ذكرهم في كتبه ولما لزمهم وسمع منهم ورضي أن يكونوا له أساتذة.

- وكذلك فإن الحافظ ابن رجب الحنبلي السلفي تلميذ ابن تيمية يتحدث عن العديد من العلماء واصفاً إياهم بالصوفية كإبراهيم بن علي بن أحمد بن فضل الوسطي الصالحي الفقيه الزاهد العابد شيخ الإسلام بركة الشام قطب الوقت تقي الدين أبو اسحاق[1].

- وكذلك يتحدث عن محمد بن عبد اللّه بن عمر بن أبي القاسم البغدادي المقرئ المحدث الصوفي[2].

- وكذلك ما ذكره الحافظ القاضي ابن أبي يعلى عن تلاميذ الإمام أحمد ابن حنبل فكثيراً ما يثني على بعضهم بأنه صوفي، فقد بين أنّ: (أحمد بن الحسن بن عبد الجبار بن راشد، أبو عبد اللّه الصوفي سمع علي بن الجعد وأبا نصر التمار ويحيى بن معين من آخرين، نقل عن إمامنا أشياء)[3].

- وبذلك يتجلى واضحاً للعيان من هذه النقول التي أوردناها من كتب رجال الحديث والفقه أن كلمة صوفي تعني أن صاحبها بلغ درجة كبيرة في التقوى ولا يمكن أن يتصور أبداً أن هؤلاء الأئمة الذي قبلت الأمة أحكامهم على صحة الأحاديث النبوية كالإمام الذهبي أن يطلقوا كلمة الصوفية على رجال الحديث والفقه إن كانت دخيلة على المنهج الإسلامي كما يدعي بعض الناس، ويقولون: لماذا نسميهم صوفية واللّه تعالى يقول: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ

---

(١) ابن رجب الحنبلي: الذيل على طبقات الحنابلة جزء٢ ص٣٢٩.

(٢) المرجع نفسه: جزء٢ ص ٣٥٣.

(٣) ابن أبي يعلى: طبقات الحنابلة جزء١ ص ٣٦.

ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ ﴾[1] فهل غاب عن هؤلاء الأجلاء فهم هذه الآية حتى يتركوا العمل بها ويطلقوها بلا تبصر وروية، إنهم علموا وتيقنوا أن إطلاق هذه الكلمة لا يتعارض مع الآية الشريفة كما سبق أن شرح الإمام الشاطبي في كتابه الاعتصام عن سبب هذه التسمية وبدء ظهورها وأنها وصف لقوم التزموا بكل مبادئ الإسلام من العبادة والجهاد في سبيل اللّه والجهر بكلمة الحق.

- وابن تيمية الذي يعده المتسلفة المرجع الأساسي لهم - مر معنا حديثه عن الصوفية وتمسكهم بالكتاب والسنة في كتابه الفتاوى حيث خصهم ببحثٍ تحدث فيه عنهم وعن سلفهم ومتأخريهم ومتقدميهم، وعدد مشايخهم وبعضٍ أقوالهم وأعمالهم، ووصفهم بأنهم من أكمل صديقي زمانهم.

- وتلميذه ابن القيم ألف كتاباً يعد مرجعاً أساسياً عند أهل التصوف وهو مدارج السالكين تحدث فيه عن المقامات والأحوال والمنازل المختلفة التي ينـــزل بها ويجتازها سالكو طريق الحقيقة.

- وقد مر معنا أيضاً أن الإمام الشاطبي الذي يعده المتسلفة إماماً لهم ويعدونه كتابه (الاعتصام) مرجعاً أساسياً لبعض آرائهم، عقد في كتابه هذا فصولاً كريمة عن التصوف الإسلامي وأثبت أنه من صميم الدين وليس هو مبتدعاً، ووفى المقام حقه من الكلام بما تسلم له العقول والقلوب قائلاً: إن كثيراً من الجهال يعتقدون في الصوفية أنهم متساهلون في الاتباع والتزام ما لم يأت في الشرع التزامه، مما يقولون به ويعملون عليه، وحاشاهم من ذلك أن يعتقدون أو يقولوا به، فأول شيء بنوا عليه طريقهم اتباع السنة، واجتناب ما خالفها.

---

(١) سورة الحج: ٧٨.

- كذلك شأن الإمام السبكي وهو من كبار الفقهاء وعلماء الأصول المدافعين عن السنة بإجماع كثير من العلماء والمشهور بمحاربته للبدع والخرافات يتحدث عن الصوفية قائلاً: (بأنهم فازوا فوزاً عظيماً وبلغوا من الكمالات ما لم يصل إليه غيرهم)[1].

- وأخيراً وبعد هذه الحجج الدامغة من أقوال العلماء الأجلاء الذين يعتد بشهادتهم ولا يستغني باحث عن الاستدلال بآرائهم في شتى العلوم المختلفة كالفقه والأصول والتفسير والحديث هل يشك عاقل في نسبة التصوف والصوفية إلى أهل السنة والجماعة الذين يتمسكون بالكتاب والسنة اللّهم إلا إذا كان الهوى والتعصب هو الذي يحول بينه وبين البحث العلمي الصحيح.

- ألا فليتق اللّه من يتكلم في حق هذه الطائفة بغير تثبت من المسلمين ممن ينسب إلى العلم، والأحرى به أن يراجع تلك النصوص التي أوردناها من الكتب المختلفة ليقف على حقيقة أمر هؤلاء الرجال ولا يسارع إلى الحكم عليهم إلا بعد التثبت والتمحيص فالحكمة ضالة المؤمن يلتقطها أنى وجدها وأن يدعَ الهجوم عليهم أو على التسمية التي كثر حولها الخلاف وهل هي لقب أو نسبة فلا مشاحة في الاصطلاح، كما قال الشيخ ابن تيمية والذي يعنينا هو الجوهر والمضمون وما هو عليه هؤلاء القوم من عقائد وآراء.

(١) السبكي: العهد الوثيق لمن أراد سلوك أحسن الطريق.

التصوف المفترى عليه

- لعل من أهم الأسباب التي جعلت كثيراً من المتأخرين يهاجمون التصوف حتى إن بعضهم يصفهم بالمبتدعين أو بالمرتدين ويشن عليهم حرباً ضروساً في أقواله وكتاباته.

- أقول: لعل من أهمها ما يرونه على بعض من تسمى باسم التصوف، والتصوف منهم بَرَاء، فهم يرون منهم استغلالاً أو انحرافاً أو كذباً، أو معاملة سيئة، أو أعمالاً شاذة، أو خروجاً عن تعاليم الشريعة، أو غير ذلك من الأمور التي لا يرضاها عاقل أو مسلم أو محب للّه ﷻ ورسوله ﷺ.

فهل ينبغي إن رأى أحد من أولئك على هؤلاء مثل هذه الأمور أن يشن حرباً على أهل التصوف جميعاً.

- إنّ المنصفين دائماً يرون أنه قد يوجد في كل جماعة أياً كانت بعض المنافقين أو المستغلين أو المنحرفين أو السيئين، وهذا لا يدفعهم إلى الحكم على الجماعة كاملة بأحكام جائرة لأن الحكم يكون على المبادئ والحقائق وليس الحكم على الشواذ من المدعين.

- وبناء على ذلك نرى أن كل ما يخالف تعاليم الإسلام وشرائعه في شيء لا تصح نسبته إلى الصوفية والتصوف وإنما هو من ضلالات المدعين الذين انتسبوا للتصوف زوراً وبهتاناً أو من الأمور المدسوسة على كتبهم بقصد الطعن في هؤلاء القوم وتشويه صورتهم ونهجهم كما حدث في كتب التفسير، فقد دُسّ فيها من الإسرائيليات ما يناقض ما عرف عن هؤلاء المفسرين من حرص على بيان الحق والبعد عن هذه المرويات الملفقة وكذلك ما جاء في بعض كتب الحديث من الأحاديث الموضوعة، وقام العلماء الأجلاء

ببيانها ولذلك فإني أرى أن الهوة بين التصوف والمعارضين له نشأت من اقتناعهم بأن هذه الأقوال الباطلة هي من صميم آراء المتصوفة، ولو أنهم وضعوا الأمور في نصابها ونظروا إليها نظرة فاحصة مستبصرة لوجب عليهم ألا يلصقوا هذه الأقوال الشنيعة بهؤلاء القوم وأن يحسنوا الظن بهم وخاصة أنهم قد لقوا ربهم وأصبحوا بين يدي اللّه تعالى وأفضوا إلى ما قدموا.

- وإليك بعض الأمثلة على ذلك الدس والافتراء على هؤلاء القوم يقول الشيخ عبد الوهاب الشعراني[1]: (ومما منّ اللّه تبارك وتعالى به عليّ صبري على الحسدة والأعداء لما دسوا في كتبي كلاماً يخالف ظاهر الشريعة وذلك لما صنفت كتاب: البحر المورود في المواثيق والعهود وكتب عليه علماء المذاهب الأربعة بمصر وتسارع الناس لكتابته فكتبوا منه نحو أربعين نسخة غار من ذلك الحسدة فاحتالوا على بعض المغفلين من أصحابي واستعاروا منه نسخته وكتبوا لهم منها بعض كراريس ودسوا فيها عقائد زائفة ومسائل خارقة لإجماع المسلمين وحكايات وسخريات عن جحا وابن الراوندي وسبكوا في ذلك غضون الكتاب في مواضيع كثيرة حتى كأنهم المؤلف ثم أخذوا تلك الكراريس وأرسلوها إلى سوق الكتب في يوم السوق وهو مجمع طلبة العلم فنظروا في تلك الكراريس ورأوا اسمي عليها فاشتراها من لا يخشى اللّه تعالى ثم دار بها على علماء جامع الأزهر فأوقع ذلك فتنة كبيرة ومكث الناس يدورون في المساجد والأسواق وبيوت الأمراء نحو سنة وانتصر لي الشيخ نصر

(١) عبد الوهاب الشعراني: (أبو المواهب، أبو عبد الرحمن) عبد الوهاب بن أحمد بن علي بن أحمد بن محمد بن موسى الشعراني، الأنصاري، الشافعي، الشاذلي، المصري فقيه، أصولي، محدث، صوفي، مشارك في أنواع من العلوم. ولد في قلقشنده بمصر، وتوفي بالقاهرة (٩٧٣هـ/١٥٦٥م، له تصانيف كثيرة [معجم المؤلفين]

الدين اللقاني وشيخ الإسلام الحنبلي والشيخ شهاب الدين بن الحلبي كل ذلك وأنا لا أشعر فأرسل لي شخص من المحبين بالجامع الأزهر وأخبرني الخبر فأرسلت نسختي التي عليها خطوط العلماء فنظروا فيها فلم يجدوا فيها شيئاً مما دسه هؤلاء الحسدة...الخ)[1].

- وقد ذكر ذلك أيضاً المؤرخ الكبير عبد الحي بن العماد الحنبلي[2] حيث قال: (وحسده طوائف فدسوا عليه كلمات تخالف ظاهر الشرع وعقائد زائغة ومسائل تخالف الإجماع فخذلهم الله وأظهره الله عليهم وكان مواظباً على السنة ومبالغاً في الورع.. الخ)[3].

- ومن ذلك يتبين واضحاً جلياً أن كل ما نراه في الكتب منسوباً إليهم وهو مخالف للشرع كما في الطبقات الكبرى للشعراني فهو من وضع الزنادقة وقد جاء في كتاب حقائق عن التصوف ما يلي: (وكذلك دسوا على الشيخ محيي الدين بن العربي رحمه الله قال الشعراني (كان رضي الله عنه مقتدياً بالكتاب والسنة ويقول: كل من رمى ميزان الشريعة من يده لحظة هلك) إلى أن قال: (وجميع ما عارض من كلامه ظاهر الشريعة وما عليه الجمهور فهو مدسوس عليه) كما أخبرني بذلك سيدي أبو طاهر المغربي ثم أخرج لي نسخة

---

(١) عبد الوهاب الشعراني: لطائف المنن والأخلاق، جزء٢، ص١٩٠.

(٢) عبد الحي بن العماد(أبو الفلاح): عبد الحي بن احمد بن محمد بن العماد العكري، الدمشقي، الصالحي، الحنبلي، المعروف بابن العماد مؤرخ، فقيه، أديب.ولد في صالحية دمشق، وأقام بالقاهرة مدة طويلة، وتوفي بمكة (١٠٨٩هـ/١٦٧٩م). [معجم المؤلفين]

(٣) عبد الحي الحنبلي: شذرات الذهب، جزء٨، ص٣٧٤.

الفتوحات المكية التي قابلها على نسخة الشيخ التي بخطه في مدينة قونية فلم ير فيها شيئاً مما كنت توقفت فيه وحذفته حين اختصرت الفتوحات....

ثم قال الشعراني رحمه الله: إذا علمت ذلك فيحتمل أن الحُسَّدَ دسوا على الشيخ في كتبه كما دسوا في كتبي أنا، فإنه أمر قد شاهدته عن أهل عصري في حقي، فالله يغفر لنا ولهم آمين) [1].

- وذكر العلامة ابن عابدين الفقيه الحنفي وصاحب أكبر موسوعة في الفقه الحنفي أن الأرجح عنده بالنسبة لما ورد في كتب الشيخ محيي الدين بن عربي مما يخالف الشرع بأنه مفترى عليه ولذلك تجد نص عبارته: (لكن الذي تيقنته أن بعض اليهود افتراها على الشيخ قدس اللّه سره)[2].

- بل إن ابن تيمية نفسه يعترف بالدس على السيدة رابعة العدوية[3] حيث يقول: (وأما ما ذكر عن رابعة عن قولها عن البيت الحرام إنه الصنم المعبود في الأرض فهو كذب على رابعة المؤمنة التقية..)[4].

(١) عبد القادر عيسى ص٤٠٩ نقلاً عن اليواقيت والجواهر للشعراني جزء١ ص٩.

(٢) الحصفكي: الدر المختار، جزء٣، ص٣٠٣.

(٣) رابعة العدوية: أم الخير رابعة بنت إسماعيل العدوية، مولاة آل عتيك، البصرية: صالحة مشهورة، من أهل البصرة، ومولدها بها. لها أخبار في العبادة والنسك والتصوف، ولها شعر توفيت سنة (١٣٥هـ/٧٥٢م). [الأعلام للزركلي]

(٤) ابن تيمية: مجموعة الرسائل والمسائل، جزء١، ص٨٠.

أهمية التصوف

- عندما نريد أن نتحدث عن أهمية التصوف يجب أن نعرف أن هذه الأهمية ليست نابعة من التصوف في حد ذاته، وإنما هي نابعة من الاختصاص الذي يختص به التصوف.

- فقد بينا سابقاً أن التصوف ليس شيئاً جديداً على الإسلام، ولا منفصلاً عنه، ولا زيادة مضافة إليه: إنه اسم يعبر عن اختصاص بجانب معين من الإسلام إنه جانب مهم، هو جانب التزكية، التزكية التي هي من مهمات النبي ﷺ التي أرسله الله بها. قال تعالى مبيناً ذلك:

﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ ﴾[1].

- وقد أمرنا الله ﷻ في عدد من الآيات بالاهتمام بهذا الجانب في مثل قوله سبحانه: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ ﴾[2].

- وفي قوله تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ ﴾[3].

- كما أن التصوف من جهة أخرى يسعى إلى الوصول إلى مقام الإحسان عند المسلم وهو أحد الأركان الأساسية للدين كما جاء في الصحيح من حديث جبريل مع رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ: «الإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»[4].

---

(١) سورة الجمعة: ٢.

(٢) سورة الشمس: ٩.

(٣) سورة الأعلى: ١٤.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة ﷺ.

- وقد علمنا أن الشارع أمر الإنسان بتكاليف في خاصة نفسه ترجع إلى قسمين:

- قسم يتعلق بأعماله الظاهرة.
- وقسم يتعلق بأعماله الباطنة.

- وبلفظ آخر: أحكام تتعلق بظاهر الإنسان وأحكام تتعلق بباطنه (القلب والنفس).

- أما الأعمال التي تتعلق بظاهره فهي نوعان:

- أوامر ونواه، **فالأوامر** المفروضة كالصلاة والصوم...

- وأما **النواهي** المحظورة كتحريم الزنى والسرقة..

- وأما الأعمال التي تترتب على القلب فهي كذلك نوعان أوامر ونواه، فالأوامر المفروضة: كالإيمان بالله وملائكته.. وكالإخلاص والتوكل والخشوع والصدق والصبر..

- وأما النواهي المحظورة، كالكفر والنفاق والحقد...

- وهذا القسم الثاني هو المعول عليه في ديننا ألا وهو أعمال القلوب لأنه مَبْنَى الأمور كلها على إخلاص النيات لرب البريات التي لا يعلم بها غيره فقد قرن الله سبحانه وتعالى أعمال الظاهر وسلامة الباطن فيها، لأن فساد الباطن يوجب فساد الأعمال الظاهرة، فقال سبحانه:

﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾﴾[1].

- وإلى ذلك أشار النبي ﷺ بقوله: «ألا وإن في الجسد مضغة إذا

---

(١) سورة الكهف: ١١٠.

صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب»[1].

- لأن العمدة يوم القيامة على القلب السليم كما أخبر اللّه سبحانه وتعالى فقال: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾[2].

- وكما أخبر سيدنا محمد ﷺ أن محل نظر الرب هو القلب، فقال ﷺ: «إن اللّه لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»[3].

- مما مر معنا نتبين أن التصوف إنما هو العلم المختص بموضوع هام هو فقه الباطن المسمى بعلم الباطن وهو الذي يهتم بالأحكام التي تتعلق بباطن الجسد وهو القلب والنفس وهو ما سماه القرآن أيضاً بالتزكية وسماه النبي بالإحسان.

- وهذا الجانب الذي اهتم به التصوف هو جانب أساسي بل هو الجانب الأهم في الشريعة لأنها تبنى عليه.

- لذلك عدّ كثير من العلماء هذا الاختصاص فرضَ عين لأن تصفية القلب ومداواته، وكبح جماح النفس عن شهواتها وتهذيبها وتزكيتها والسعي بها إلى كمالاتها، للوصول إلى مقام الإحسان من أهم الفرائض العينية وأهم الواجبات الربانية، وقد دل على ذلك كثير من آيات القرآن وسنة النبي ﷺ وأقوال العلماء والفقهاء التي تتحدث عن أعمال القلب كالإخلاص والإيمان وحسن الخلق والصدق والصبر والتوكل والإحسان والبعد عن الرياء والحقد والحسد والنفاق...

---

(١) متفق عليه عن النعمان بن بشير ﷺ.

(٢) سورة الشعراء: ٨٨-٨٩.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه.

- وقد أجمع العلماء على أن الأمراض والآفات القلبية من الكبائر التي تحتاج إلى توبة مستقلة لأن أمراض الباطن كافية لإحباط أعمال العبد ولو كانت كثيرة.

- قال الفقيه العلامة الكبير ابن عابدين في حاشيته الشهيرة:

(إن علم الإخلاص والعجب والحسد والرياء فرض عين مثل غيرها من آفات النفوس كالكبر والشح والحقد... إلى أن قال: ولا ينفك عنها بشر، فيلزمه أن يتعلم منها ما يرى نفسه محتاجاً إليه وإزالتها فرض عين ولا يمكن إلاّ بمعرفة حدودها وأسبابها وعلاماتها وعلاجها فإن من لا يعرف الشر يقع فيه)[1].

- وقال حجة الإسلام الإمام الغزالي -بعد أن اختبر طريق التصوف ولمس نتائجه وذاق ثمراته-: (الدخول مع الصوفية فرض عين، إذ لا يخلو أحد من عيب إلا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام)[2].

- (وقال أبو الحسن الشاذلي رضي اللّه عنه: (من لم يتغلغل في علمنا هذا مات مصراً على الكبائر وهو لا يشعر.

- وفي هذا القول يقول ابن علاّن الصديقي[3]: ولقد صدق فيما قال - يعني أبا الحسن الشاذلي-فأي شخص يا أخي يصوم ولا يعجب بصومه؟ وأي شخص يصلي ولا يعجب بصلاته، وهكذا سائر الطاعات)[4].

---

(١) ابن عابدين: حاشية رد المحتار، جزء١، ص٣١.

(٢) الفاسي: النصرة النبوية على هامش شرح الرائية، ص٢٦.

(٣) ابن علان أحمد بن إبراهيم بن علان، الصديقي الشافعي النقشبندي: عالم فاضل متصوف، من أهل مكة مولداً ووفاة (١٠٣٣هـ/١٦٢٤م) له مؤلفات كثيرة [الأعلام للزركلي].

(٤) ابن عجيبة: إيقاظ الهمم شرح متن الحكم، جزء١، ص٧.

- ولما كان هذا الطريق صعب المسالك على النفوس الناقصة فعلى الإنسان أن يجتازه بعزم وصبر ومجاهدة حتى يُطهّر نفسه من أدرانها ونقائصها وبعدها عن الله تعالى ورضوانه.

- يقول الفضيل بن عياض رحمه اللّه تعالى: (عليك بطريق الحق ولا تستوحش لقلة السالكين، وإياك وطريق الباطل ولا تغتر بكثرة الهالكين، وكلما استوحشت من تفردك فانظر إلى الرفيق السابق، واحرص على اللحاق بهم، وغض الطرف عن سواهم، فإنهم لن يغنوا عنك من اللّه تعالى شيئاً، وإذا صاحوا بك في طريق سيرك فلا تلتفت إليهم فإنك متى التفت إليهم أخذوك وعاقوك)[1].

- (وقد قال ابن زكرى رحمه اللّه متحدثاً عن التصوف:

به وصول العبد للخلاص روح العبادة بالاختصاص
وذاك واجب على المكلف تحصيله يكون بالمعروف

يعني أن علم التصوف فرض عين على كل مكلف، وذاك أن الغالب أن الإنسان لا ينفك عن دواعي الشر والرياء والحسد، فيجب عليه أن يتعلم ما يتخلص به من ذلك)[2].

- من كل ما سبق نجد أن التصوف يهتم بجانب مهم من جانبي الإسلام وهو جانب علم الباطن وتزكية النفس والقلب وهو جانب ضروري لا يستغنى عنه ولا يتم الإسلام ولا يكمل الإيمان إلا به.

- من هنا نخلص إلى أن هذا العلم علم التصوف الصافي والعمل به هو فرض عين على كل مسلم.

---

(١) المصدر السابق.

(٢) محمد أحمد الفاسي: الدر الثمين والمورد المعين.

حاجتنا إلى التصوف

- لو رجعنا إلى تاريخنا القديم، التاريخ الإسلامي، لأدركنا أنّ الحاجة ماسّة إلى التصوف فهو الذي حفظ روح الدين وجوهره على مدى هذا التاريخ، وهو الذي عمل أتباعُهُ على نشر هذه الدعوة، خاصة بعد الفتوحات، فعن طريق التجارة وغيرها عمل الدعاة المتصوفة على إيصال هذا الدين إلى جميع بقاع هذا العالم شرقه وغربه شماله وجنوبه، فكانوا عاملاً هاماً في نشر هذا الدين ووصوله إلى هذه البلاد البعيدة متحملين مشاقاً قاسية صعبة لم يسهلها عليهم إلا تصوفهم الذي بنى إيمانهم المتين، وعقيدتهم الصادقة، وسلوكهم المستقيم، وإرادتهم القوية، وصبرهم الشديد، فهان عليهم ما لاقوه، وفرحوا بما بذلوه.

- (وتجدر الإشارة أن الطرق الصوفية قد قامت بنشر الإسلام في أصقاع لم تطأها جيوش المسلمين كما حصل في غرب ووسط وجنوب الصحراء الإفريقية حيث اندفعت هذه الطرق إلى الناس في القرى والأماكن النائية تاركة الخطوط التجارية والمسالك المعروفة والمدن الكبرى، فسطرت بذلك مآثر لا ينافسها سواها في مجالها)[1].

- هذا وقال شاتيلي -وهو أحد المؤرخين الغربيين وبعد أن أطال البحث والشرح في كيفية انتشار الإسلام في العالم، وبعد أن عَزَاهُ إلى مشايخ الطرق الصوفية-: (والخلاصة أن الإسلام مدين بكل فتوحاته السلمية وانتشاره في الأقطار لجماعة الصوفية، فمشايخ الطرق هم في الحقيقة الذين

---

(١) أحمد الشلبي: موسوعة التاريخ الإسلامي، جزء٦، ص٢١٩.

يديرون حركة الإسلام الحية، ولا يخفى ما في عملهم هذا من الخطر على المصالح الأوربية)[1].

- والتتر والمغول اللذان لم تستطع قوة أن تقف أمامهما استطاع هؤلاء الدعاة المتصوفة إيقافهم وصدهم وإجبارهم على التراجع وذلك بفضل دعوتهم إياهم إلى الإسلام، فدخل الإسلام قلوب ملوكهم ورؤسائهم وقوادهم فأصبحوا على خير كبير بعد الشر المستطير الذي كانوا عليه والذي حملوه للشعوب المستضعفة التي حل بها العار والدمار والفناء.

- وإذا أردنا أن نعرف بعض الأعمال التي قام بها رجالات التصوف فلنستمع إلى الشيخ أبي الحسن الندوي[2] وهو عضو المجمع العلمي العربي بدمشق ومعتمد ندوة العلماء بالهند، يقول في بحث ((الصوفية في الهند وتأثيرها في المجتمع)):

(إن هؤلاء الصوفية كانوا يبايعون الناس على التوحيد والإخلاص واتباع السنة، والتوبة عن المعاصي، والظلم، والقسوة، ويرغبونهم في التحلي بالأخلاق الحسنة، والتخلي عن الرذائل، مثل الكبر والحسد والبغضاء، والظلم وحب الجاه، وتزكية النفس وإصلاحها، ويعلمونهم ذكر الله، والنصح لعباده،

---

(١) عبد الرحمن الجيلالي: تاريخ الجزائر العام، جزء٣، ص٢٥٣.

(٢) أبو الحسن الندوي رباني الأمة عالم رباني وداعية مجاهد وأديب تميز بجمال الأسلوب وصدق الكلمات ولد بقرية تكية، مديرية رائي بريلي، الهند وقد شارك رحمه الله في عدد من المؤسسات والجمعيات الإسلامية، ومنها تأسيس المجمع العلمي بالهند، وتأسيس رابطة الأدب الإسلامي كما أنه: عضو مجمع اللغة العربية بدمشق، وعضو المجلس التنفيذي لمعهد ديوبند، ورئيس مجلس أبناء مركز أوكسفورد للدراسات الإسلامية. [المجمع الجامع في تراجم العلماء وطلبة العلم المعاصرين]

والقناعة والإيثار، وعلاوة على هذه البيعة التي كانت رمز الصلة العميقة الخاصة بين الشيخ ومريديه، إنهم كانوا يعظون الناس دائماً، ويحاولون أن يلهبوا فيهم عاطفة الحب لله سبحانه، والحنين إلى رضاه، ورغبة شديدة لإصلاح النفس وتغير الحال...)[1].

- ثم تحدث عن مدى تأثير أخلاقهم وإخلاصهم وتعليمهم وتربيتهم ومجالسهم في المجتمع والحياة، وضرب بعض الأمثلة التي تلقي الضوء على هذا الواقع التاريخي ثم تحدث عن الشيخ أحمد الشهيد، رحمه الله تعالى، فقال: (إن الناس أقبلوا عليه إقبالاً منقطع النظير، وإنه لم يمر ببلدة إلا وتاب على يديه وبايعه عدد كبير من الناس، وإنه أقام في كلكتا شهرين ويقدر أن الذين كانوا يدخلون في البيعة لا يقل عددهم عن ألف نسمة يومياً، وتستمر البيعة إلى نصف الليل، وكان من شدة الزحام لا يتمكن من مبايعتهم واحداً واحداً، فكان يمدّ سبعة أو ثمانية من العمائم، والناس يمسكونها ويتوبون ويعاهدون الله، وكان هذا دأبه كل يوم سبع عشر أو ثماني عشرة مرة...)[2].

- وتحدث عن شيخ الإسلام علاء الدين رحمه الله تعالى، فقال: (إن السنوات الأخيرة من عهده تمتاز بأن كسدت فيها سوق المنكرات من الخمر الحرام والفسق والفجور والميسر والفحشاء بجميع أنواعها، ولم تنطق الألسن بهذه الكلمات إلا قليلاً، وأصبحت الكبائر تشبه الكفر في أعين الناس، وظل الناس يستحيون من التعامل بالربا والادخار والاكتناز علناً، وندرت في السوق حوادث الكذب والتطفيف والغش..)[3].

---

(١) أبو الحسن الندوي: المسلمون في الهند.

(٢) المرجع السابق.

(٣) المرجع نفسه.

ثم قال: (إن تربية هؤلاء الصوفية والمشايخ ومجالسهم كانت تنشئ في الإنسان رغبة في إفادة الناس، وحرصاً على خدمتهم ومساعدتهم...)[1].

- وقال الشيخ أبو الحسن الندوي في كتابه: (فلا شك أنه لولا هؤلاء ((الصوفية)) أصحاب النفوس المزكاة، الذين وصلوا إلى درجة الإحسان وفقه الباطن لانهار المجتمع الإسلامي، إيماناً روحانياً، وابتلعت موجة المادية الطاغية العاتية، الباقية من إيمان الأمة وتماسكها، وضعفت صلة القلوب باللّه، والحياة بالروح والمجتمع بالأخلاق، وفقد الإخلاص والاحتساب، وانتشرت الأمراض الباطنة واعتلت القلوب والنفوس، وفقد الطبيب، وتكالب الناس على حطام الدنيا، وتنافس أهل العلم في الجاه والمال والمناصب، وغلب عليهم الطمع والطموح، وتعطلت شعبة من أهم شعب النبوة وبنيانها، وهي تزكية النفوس والدعوة إلى الإحسان وفقه الباطن)[2].

- ثم بيّن الأستاذ الندوي أن تأثير هذه المواعظ، ودخول الناس في الدين وانقيادهم للشرع أدّى إلى تعطيل تجارة الخمر، وكساد سوقها في كلكتا، وهي كبرى مدن الهند، ومركز الإنجليز، وكسدت سوقه وأفقرت الخانات واعتذر الخمارون عن دفع الضرائب للحكومة، متعللين بكساد السوق، وتعطيل تجارة الخمر...

ثم قال: (إن هذه الحالة كانت نتيجة أخلاق هؤلاء المصلحين والدعاة الصوفية والمشايخ وروحانيتهم، أن اهتدى بهم في هذه البلاد الواسعة عدد هائل من الناس وتابوا عن المعاصي والمنكرات واتباع الهوى)[3].

---

(١) المرجع نفسه.

(٢) أبو الحسن الندوي: ربانية لا رهبانية ص١٧-١٨.

(٣) المرجع السابق.

وفي ختام البحث قال الأستاذ الندوي حفظه اللّه تعالى: (لقد كانت هناك بجهود هؤلاء الصوفية أشجار كثيرة وارفة الظلال في مئات من بلاد الهند، استراحت في ظلها القوافل التائهة والمسافرون المتعبون، ورجعوا بنشاط جديد وحياة جديدة)[1].

- وتحدث الشيخ أبو الحسن الندوي عن الصوفية وأثرها في نشر الإسلام بصدر حديثه عن الصوفي الشهير والمرشد الكبير سيدي الشيخ عبد القادر الجيلاني قدس اللّه روحه، فقال:

(وكان يحضر مجلسه نحوٌ من سبعين ألفاً، وأسلم على يديه أكثر من خمسة آلاف من اليهود والنصارى، وتاب على يديه من العيارين أو المساحلة[2] أكثر من مائة ألف، وفتح باب البيعة والتوبة على مصراعيه، فدخل فيه خلق لا يحصيهم إلا اللّه، وصلحت أحوالهم، وحسن إسلامهم، وظل الشيخ يربيهم ويحاسبهم ويشرف عليهم وعلى تقدمهم، وأصبح هؤلاء التلاميذ الروحانيون يشعرون بالمسؤولية بعد البيعة والتوبة وتجديد الإيمان، ثم يجيز الشيخ كثيراً منهم ممن يرى فيه النبوغ والاستقامة والمقدرة على التربية، فينتشرون في الآفاق يدعون الخلق إلى اللّه، ويربون النفوس، يحاربون الشرك والبدع والجاهلية والنفاق، فتنتشر الدعوة الدينية وتقوم ثكنات الإيمان ومدارس الإحسان ومرابط الجهاد ومجامع الأخوة في أنحاء العالم الإسلامي)[3].

- وتحدث الشيخ أبو الحسن الندوي فقال: إنني أقول دائماً:

---

(١) المسلمون في الهند ص (١٤٠-١٤٦)، للعلامة الكبير أبي الحسن الندوي.

(٢) المساحل: الجماعة أو القوم ذوو السلاح.

(٣) أبو الحسن الندوي: رجال الفكر والدعوة في الإسلام، ص٢٤٨-٢٥٠.

(لولا وجودهم وجهادهم لابتلعت الهندُ وحضارتُها وفلسفتُها الإسلامَ)[1].

- وفي هذا الموضوع أيضاً يقول الأستاذ الشيخ أحمد الشرباصي الكاتب الإسلامي المعروف والمدرس في الأزهر الشريف:

(أرأيت إلى كنـــز وسيع عجيب فيه المال الغزير الذي لا يحصى وفيه أدوية الجسم الشافية التي لا تخون وفيه نور القلب الذي لا يخبو... ماذا يكون شأنك لو أن إنساناً أخبرك بوجود هذا الكنـــز بمكان ما ورسم لك الطريق إليه وذكر لك ما تحتاجه الرحلة من مجهود وتكاليف.. ألا تحاول أن تبذل جهدك وتستنفدَ طاقتك وتعمل وسعك حتى تصل إلى هذا الكنـــز الذي ستجد فيه جاه الدنيا وعز الآخرة؟. كذلك شأن التصوف يا صاح، إنه الدواء المخفي والكنـــز المطوي والسر العلمي، إنه الدواء الذي يحتاج إليه جسمك وفهمك وخلقك، ولكنك لن تصل إليه ولن تنتفع به حتى تتجه بمشاعرك نحوه وحتى تقبل ببصرك وبصيرتك عليه وحتى تبذل من ذات يدك وذات نفسك ومن وقتك وبحثك ما يهيّئ لك البلوغ إليه والوقوف عليه، فهل فعلت من ذلك شيئاً وقد عرفت الطريق إلى النعيم؟!..

يهمني أن تكون على بصيرة من أمرك، وأن لا تجهل شيئاً جليلاً يطالبك دينك وعقلك بأن تعرفه، ومن هنا يحتم عليك أن تدرس التصوف لتتصوره وتفهمه وتفقهه، وبعد ذلك تحكم له أو عليه، وأزيدك بياناً فأقول لك: إنه قد يكون في التصوف وتاريخه وسير رجاله ما أضيف إليه أو افتراه المفترون عليه، ومن هنا يستتر حق وراء باطل، ومن هنا أيضاً يطالبك دينك بأن تقوم لتهتك حجاب الباطل وتســـتضيء بنور الحق، فهلا يكفي ذلك لتحريضـــك على

---

(١) أبو الحسن الندوي: روائع إقبال، ص٧.

دراسة التصوف؟؟!!

يا أبناء الإسلام!: إن التصوف يحتل من أخلاقكم وتاريخكم جانباً كبيراً وقد ضيعتموه أزمنة طوالاً، فحسبكم ما كان، وأقبلوا على التصوف، ففيه غذاء ودواء، واللّه الهادي إلى سبيل السواء)[1].

- وختاماً لهذا البحث نجد أن الحاجة ماسة لتعلم التصوف وتطبيق سلوكه وخاصة في هذا الزمان الذي كثرت فيه الشهوات والملذات والمبعدات عن الدين وجوهره، وعن الإسلام وأركانه، وعن الإيمان ومبادئه، وعن الأخلاق والسلوك وتعاليمه.

- حيث أصبحنا نرى المسلم يرتاد المساجد للصلاة، وربما سعى لأن يقف في الصف الأول، ونراه يتحدث بل ويجيد التحدث عن الإسلام وتشريعه، ولكننا لو راقبنا واقعه العملي في أسرته أو مع أهله أو جيرانه أو شركائه أو مع من يتعامل معهم لوجدنا الكثير من هؤلاء قد ضلوا السبيل بكلامهم أو أفعالهم، يأكلون أموال اليتامى، وأموال إخوانهم وأخواتهم، ولا يؤدون حقوق الآخرين، ويسعون في الأرض فساداً بالظلم والغش والحسد والحقد والغيبة والنميمة.

- مع هذا الواقع الأليم ألا نحتاج إلى المصلحين والمزكين والمربين الذين يأخذون بأيدي هؤلاء إلى جوهر الإسلام علماً وعملاً وتطبيقاً لشرع الله وسنة نبيه.

- فما أحرانا بأن نعود إلى العلماء العارفين والمزكين المربين، نجالسهم بأدب، ونتعلم منهم ونتأدب بآدابهم، ونتخلق بأخلاقهم، ونسلك طريقهم

---

(١) الشيخ حامد إبراهيم محمد صقر: تصدير كتاب نور التحقيق ، ص١-٣ بتصرف.

حتى نفوز بسعادة الدارين الدنيا والآخرة، ومن ثَمَّ نحمل هذه التعاليم وندعو إليها لتعم البلاد، وينعم العباد، ويسود الوداد، حتى نلقى رب العباد وهو عنا راض ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾﴾[1].

(١) سورة البينة:٨.

منهج التصوف

- هو منهج الإسلام، منهج اتباع القرآن والسنة والسلف الصالح يعمل على تزكية النفس وتطهيرها من أدرانها والوصول إلى القلب السليم وإلى الإحسان وإلى محبة الله ورسوله وإلى التقوى والورع وإلى التوكل لا التواكل وإلى الإيثار والتعاون وإلى الإخلاص والصدق والصبر والاستقامة.

- كما أنه يعمل على معالجة النفس من أمراضها كالكبر والشح والعجب والحسد والرياء والحقد والغش والغضب والعداوة والبغضاء والطمع والبخل والبطر والخيلاء والخيانة والمكر والخداع والظلم والقسوة.

- معتمداً على وسائل كثيرة منها التوبة والاستغفار، ومراقبة الله في كل الحركات والسكنات والأعمال، والخوف منه ومن عقابه والإكثار من الذكر والتسبيح والمحافظة على الفرائض والإكثار من النوافل كصلاة الليل والتهجد إلى غير ذلك من أعمال السلوك والرياضة الروحية وكل هذه المواضيع وغيرها مما يشتمل عليها منهاج التصوف إنما هي جزء هام من الإسلام إنها الجانب الروحي والفقه الباطني والتزكية الإيمانية والإحسان الذي هو أحد أركان الدين.

- يقول الشيخ محمد أمين الكردي شارحاً منهج التصوف: (التصوف هو علم يعرف به أحوال النفس محمودها ومذمومها، وكيفية تطهيرها من المذموم منها، وتحليها بالاتصاف بمحمودها، وكيفية السلوك والسير إلى الله تعالى والفرار إليه.

علم التصوف علم ليس يدركه ... إلا أخو فطنة بالحق معروف

وكيف يعرفه من ليس يشهده ... وكيف يشهد ضوء الشمس مكفوف

وموضوعه: أفعال القلوب والحواس من حيث التزكية والتصفية.

وثمرته: تهذيب القلوب، ومعرفة علام الغيوب ذوقاً ووجداناً، والنجاة في الآخرة والفوز برضا اللّه تعالى ونيل السعادة الأبدية، وتنوير القلب وصفاؤه بحيث ينكشف له أمور جليلة، ويشهد أحوالاً عجيبة، ويعاين ما عميت عينه بصيرة غيره.

وفضله: أنه أشرف العلوم المتعلقة بمعرفة اللّه تعالى وحبه وهي أفضل على الإطلاق.

ونسبته إلى غيره من العلوم، أنه أصل لها وشرط فيها، إذ لا علم ولا عمل إلا بقصد التوجه إلى اللّه فنسبته لها كالروح للجسد)[1].

- ولقد اتبع هذا المنهج الصحابة الكرام، ومن بعدهم التابعون، وتابعوهم والسلف الصالح والعلماء العاملون، وعلى مر العصور والأيام، وما خالفهم إلا كل جاهل أو حاقد أو حاسد أو مستأجر أو منافق أو ذو أهواء وأغراض.

- فما أحرانا نحن أن نتبع هذا المنهج ونتعلمه ونحافظ عليه ونطبقه وندعو إليه، وكم نحن بحاجة إليه وخاصة في هذا الزمان.

- ولابد لسلوك هذا المنهج من اتباع المعلم المرشد، والشيخ الدال على اللّه عز وجل الذي سلك هذا الطريق وعرف كنهه وصدق فيه فأصبح مرشداً حقاً ومربياً صادقاً يستطيع أن يدل من أراد سلوك هذا الطريق إلى حقائقه والوصول به إلى نتائجه وهي معرفة اللّه المعرفة الحقيقة والعمل على رضائه والسعي إلى طاعته والسير على منهجه حتى يلقاه وهو راض عنه، وينال بذلك سعادة الدارين الدنيا والآخرة، وكذلك يحتاج هذا المنهج إلى صحبة أهله والصدق معهم حتى يتعلم منهم ويستفيد منهم.

---

(١) محمد أمين الكردي: تنوير القلوب، ص٤٣٨.